على هامش التفسير

تأليف

عبد القادر المغربي

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

الناشر مكتبة الآداب بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية

٦ بكة الشاذلي بالحلمية الجديدة

تقريظ

من إدارة الثقافة العامة بوزارة المعارف

يتألف هذا الكتاب من عدة موضوعات تربطها كلها وحدة عامة هي أدب القرآن الكريم والتأدب به وما يجب على قارئه ومستمعه . وهي خمسة عشر موضوعا : أولها رسالة « الحجج الظاهرة فى ماهى ملذات الآخرة » وقد عرض فيها الأستاذ إلى آراء الشراح فى هذه الملذات فأورد آراء المفسرين القدامى وآراء الصوفية وآراء فقهاء اللغة .

ويلى هذا الفصل أربعة عشر فصلا آخر ، كتب بعضها حديثاً وكتبت الأخرى مقالات فى بعض الصحف .

والأستاذ المغربى غنىّ بفضله عن التعريف ، وهو حجة فيما يكتب من حيث العلم واللغة والأسلوب . وهو خليق بأن يتحمل وحده تبعة ما يرد فى كتابه من شروح للآيات القرآنية ومن آراء دينية .

تمهيد

كنتُ (سنة ١٩٢٠ م) وضعتُ تفسيراً على « جزء تبارك » توخيت فيه السهولة فى التعبير وفى إيراد المسائل ، وأنَ يكون ملائماً لروح هذا العصر ، وعقلية أبنائه . وهو اليوم يُطبع فى المطبعة الأميرية على نفقة وزارة المعارف المصرية التى طَبَعت منه خمسة عشر ألف نسخة ولم يبق إلا تغليفها .

وكانت تعرض لى ، وأنا أباشر التفسير ، آيات النعيم ووصف ملذات الجنة والأشياء التى يُستمتع بها فى بحابحها . فكنت أفسرها تفسيراً ينفى الشبهة ويزيح الشكوك ويلتحم مع العقل السليم ، من دون أن أخرج عن قواعد اللغة والمعهود فى أساليب العرب ومذاهبهم الكلامية ، ومن دون أن أتخطى قواعد الإسلام وأصوله التى تُبنى عليها سلامة العقيدة .

غير أنى (من حيث لا أشعر) كنتُ أسهب فى تفسير آيات الملذات إسهاباً رأيتُنى فيه خرجتُ عن الاختصار الذى التزمته فى تفسير آيات جزء تبارك . فأشار علىّ بعض الإخوان أن أجرّد ما قلته فى تفسير آيات الملذات فى رسالةٍ خاصة وأن أسمّيها (الحجج الظاهرة فى ماهى ملذات الآخرة) وأن أضيف على هذه الرسالة رسائل ومقالات أخرى كنت

كتبتها فى ظروف ومناسبات مختلفة ، وكلها فى موضوع القرآن وتفسير القرآن . واستملحت أن أسمى هذه المجموعة ذات الوحدة فى موضوعها القرآنى باسم ﴿ على هامش التفسير ﴾ أى تفسير جزء تبارك الذى انتهى طبعه .

هذا وأسأل الله التوفيق فى القول والعمل ومغفرة ما فيه من سهو أو زلل .

عبد القادر المغربى

رسالة الحجج الظاهرة

في ماهي ملذات الآخرة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمداً نستزيد به النعم . ونستدفع النقم . ونصلى ونسلم على نبيه صلاة نقضى بها الذمم . وتنكشف الغمم . وبعد فهذه رسالة أودعناها كلاما عن نعيم الجنة ، وأسباب مسراتها ، ووسائل اللذة الجسمانية التى يتمتع بها الأبرار فيها من مثل الخمر واللحم والحور والولدان والذهب والفضة . وقد بحثنا فى رسالتنا هذه عما إذا كانت تلك الوسائل والأسباب اللاذة حقيقية يتناولها الأبرار بأعيانها . أو أن لها معنى آخر تمثيليا يقربها من الأفهام ويدنيها من متناول الأذهان ؟ ؟

خلاصة معانى مجموع الآيات

التى ذكرت فيها وسائل النعيم

وأسباب الملذات

أعد الله فى النشأة الثانية دارا لأهل طاعته سماها « الجنة » . إذا دخلوها لا يسمعون فيها لغوا ولا فحشا . ويكون لهم فيها أزواج مطهرة من الحور العين . وولدان للخدمة لا يشيبون ولا يهرمون . ويقال لهم : كلوا واشربوا جزاء بما كنتم تعملون . فيأكلون لحوم الطير فى صحاف من ذهب وآنية من فضة . ويتناولون من نضج الثمار المتهدلة . والفاكهة الكثيرة الدائمة . تحت ظلال أشجار السدر والطلح (الموز) ويشربون من أنهار

الخمر واللبن والعسل ومن العيون الجارية شرابا ممزوجا بالكافور والزنجبيل ، تفوح منه عقب شربه رائحة المسك ، فى أباريق وأقداح من فضة صافية كالزجاج البراق ، ويتكئون على الأسرة[1] المنسوجة بالدر والجوهر والفرش المنجَّدة المرفوعة ، وقد أرخيت عليهم الكلل والستور ، وحولهم الوسائد والنمارق ، ومن تحت أرجلهم الزرابى والبسط ذات الألوان المختلفة . وأفرغت على جسومهم ثياب الحرير والديباج الأخضر ، وفى معاصمهم أساور الفضة والذهب واللؤلؤ .

فصل فى اختلاف الباحثين

ذكر الله كل ذلك فى القرآن الكريم مفرَّقا فى سوره ، لمناسبات عرضت فى صدد حضنا على الإيمان بالله وممارسة البر والخير والتقوى والعمل الصالح . وقد اختلف الباحثون من أبناء ملتنا معشر المسلمين فى فهم هذا النعيم ووسائل لذائذه الجسمانية المذكورة وهل هو على ظاهره وحقيقة كلماته اللغوية أوله معنى آخر — على ثلاثة أقوال — وقد انقسموا باعتبارها إلى ثلاث فرق كبرى :

الفريق الأول

هم جمهور العلماء المتقدمين ومن تبعهم من عامة المسلمين إلى اليوم : فقالوا : إن ما ذكره الله فى القرآن عن الجنة وأسباب نعيمها داخل كله تحت القدرة الإلهية ، والإمكان العقلى ، وقد خلق نظيره فى دنيانا هذه ، ومن خلق هذا قادر بالضرورة على خلق ذاك . فالواجب تصديقه والإيمان به

(١) السرر استعمال القرآن والأسرة جمع صحيح أيضا

من دون تأويل أو تعليل . حتى قال[١] أبو قلابة فى تفسير قوله تعالى (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) إن أهل الجنة يؤتون بالطعام والشراب ممزوجا بالكافور والزنجبيل : فإذا أكلوا وشربوا ما شاءوا دعوا بالشراب الطهور المذكور. فيشربونه فتطهر بذلك بطونهم ، ويفيض عرق من جلودهم كريح المسك فتضمر لذلك بطونهم .

فيكون الشراب الطهور على قول أبى قلابة كالهاضوم أو (الكازوز) يخفف ثقل طعام الجنة وشرابها الممزوجين بالكافور والزنجبيل . وأبو وهب الزاهد الأندلسى القرطبى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ كان يقول .(والله لا عانَقَ الأبكار فى جنات النعيم إلا من عانق الذل وضاجع الفقر فى دار الدنيا وخرج منها كما دخل فيها) ومحوى هذا أن القوم كانوا يذهبون فى كل ملذات الجنة وأسباب نعيمها مذهب الحقيقة . وأنها جسمانية محضة كملذات الدنيا وأسبابها المعهودة لنا، ومستندهم فى ذلك ظاهر الوحى والأحاديث ، وصلاحية قدرة الله تعالى لكل ما أخبر به فى وحيه[٢]

الفريق الثانى

هم الصوفية الذين اشتهروا بعشق الحضرة الإلهية والاستغراق فى تقديس الذات الأحدية . فكلام هؤلاء يشعر بأن للأكل والشرب ولحم الطير والفاكهة والخمر واللبن والأكواب والحور والولدان والأساور والستور

---

١ ـ راجع تفسير الطبرى سورة (هل أتى على الانسان حين من الدهر) (جزء قرآن ٢٩) صفحة ١٣٧ وتفسير النيسابورى على هامشة صفحة ١٢٢ — وابو قلابة هذا محدث بغدادى متعبد كثير الصلاة حدث من حفظه بستين الف حديث توفى سنة (٢٧٩)هـ

٢ ـ وأن الأصل دلالة اللفظ على معناه الحقيق مالم يوجد مانع يمنع من إرادة الحقيقة ويقتضى معنى مجازيا .

والوسائد ، والفضة والذهب ، واللؤلؤ — معانى أخر وراء مايستفاد منها لغةً ، وأن هذه المعانى هى المقصودة فى الخطاب الإلهى . وبذلك رجعوا النعيم الجسمانى إلى نعيم روحانى كما سترى . لكنهم — إلا القليل منهم — لا يحرمون على نفى النعيم الجسمانى بمرة خشية قيام العامة عليهم ، ونزول عقوبة قضاة الشرع بهم .

شواهد من كلام أرباب هذا الفريق

قال المفسر النيسابورى عند قوله تعالى : (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة) بعد أن ذكر قول الفريق الأول الذين يحملون الآيات على ظاهرها مانصه:

ويحتمل أن يقال : « إن كمال السعادة ليس إلا فى معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله من الملائكة الكروبية[1] والملائكة الروحانية . وطبقات الأرواح وعالم السموات بحيث تصير روح الإنسان كالمرآة المحاذية لعالم القدس ، ثم إن هذه المعارف تحصل فى الدنيا ، ولكن لا يحصل بها كمال الالتذاذ والابتهاج ، لمكان العلائق البدنية ، وإذا زال العائق بعد الموت ، وشاهد تلك المعارف قال هذه هى التى كانت حاصلة لى فى الدنيا ووجد كمال اللذة والسرور » .

فثمار الرزق التى تقدم إلى أهل الجنة على هذا القول ليست سوى المعارف التى تتعلق بذات الله وملائكته وطبقات الأرواح . ثم قال :

وقال أهل التحقيق: (ويعنى بهم الصوفية الذين وقفوا على حقائق الأشياء من طريق الرياضة والكشف)

---

(١) الكروبية = سادة الملائكة والمقربون منهم

الجنة جنة الوصول ، وأشجارها الملكات الحميدة ، والأخلاق الفاضلة ، والثمرات ثمرات المكاشفات والمشاهدات والأسرار والإشارات والإلهامات إلى آخر ماقاله فراجعه،وقال أيضاً عند قوله تعالى (عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً) لا يبعد أن يكون (الخمر) عبارة عن العلوم اللدنية الحاصلة بالذوق والمكاشفة و (الكافور) عبارة عن المعارف الحاصلة بواسطة البدنية (ومزاجها) عبارة عن كذا و (تفجيرها) عبارة عن كذا إلى آخر ماقال . وقال عند قوله تعالى (وحلُّوا أساورَ من فضة) (أساور اليد) كسبها وأعمالها التي صارت ملكات نورانية الخ .

هذا نموذج مما يقوله أهل هذا الفريق والله أعلم بقصودهم ونياتهم وما إذا كانوا ينكرون الملذات الجسمانية وأسبابها المادية أولا . وربما وجد في بعض الآثار ما يشهد لهؤلاء فيما ذهبوا إليه من تأويلاتهم . كحديث الإسراء الذي رواه المفسر الطبري وفيه أنه صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عن أنهار رآها في الجنة فأجابه بقوله : (وأما الأنهار فأولها رحمة الله ، والثاني نعمة الله ، والثالث سقاهم ربهم شرابا طهوراً) .

ومذ ركدت ريح علوم السادة الصوفية، في هذه الأزمان المتأخرة، أصبحت أقوالهم بشأن نعيم الآخرة وأسباب لذّاتها، كأنها مفقودة من بين المسلمين اللهم إلا رسومها في كتبهم ، وبين بعض الذين يحفظون من أقوالهم ، وقليل ماهم . والمشهور أن الصوفية لا ينكرون النعيم الجسماني، وما أوهم ذلك من أقوالهم فهو من باب الإشارة .

الفريق الثالث

قلنا إن عمدة الفريق الأول فيما ذهبوا إليه الإمكان العقلى وصلاحية قدرة الله وظاهر النصوص الشرعية وعمدة الفريق الثانى الكشف والإلهام والذوق واستبطان أسرار عوالم الغيب .

أما (الفريق الثالث) فلا يقيمون وزنا لما استند إليه هذا الفريق — أعنى الفريق الثانى — من المكاشفات ومعرفة الأسرار ، لا لأنهم ينكرون ذلك — فهم يسلمونه لأهله — بل لأنهم يقولون : إن الله أنزل علينا القرآن بلسان عربى مبين ، وكلفنا أن نتدبره ونتفهم معانيه ونعمل بها ، وبديهى أن الواسطة فى فهم هذه المعانى واستخراجها من أطواء الخطاب الإلهى إنما هى اللغة العربية وطرق بلاغتها ، ومختلف أساليب التخاطب بها ، فهى التى أنزل بها الوحى وعليها يعتمد أهل اللسان فى تخاطبهم ، أما ما يسمونه الذوق والمكاشفة فإنه أمر يختلف باختلاف الأشخاص واستعداداتهم النفسية . وليس له قواعد مضبوطة ، ولا شواهد من اللغة محفوظة ، يرجع إليها عند الخلاف ، وإن تفسير آيات القرآن بواسطته يروج الدعاوى الفاسدة ، والمزاعم الكاسدة ، وينقلنا إلى عالم من الوهم والخيال لا منتهى لحدوده . فلم يبق لنا حبل نتمسك به فى الوصول إلى فهم القرآن سوى اللغة ، ومذاهب العرب فى ملاحى كلامهم ، ومناحى خطابهم . وأساليب كناياتهم ، ومن ثمة نبه

الشارع إلى مكانة اللغة العربية ودراسة أساليبها فى فهم أسرار القرآن . وقد عير صلى الله عليه وسلم ابن قمئة المشرك بجهله مذ نزل قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصَب جهنم) فقال ابن قمئة لقريش: اسمعوا ماذا يقول محمد : إنه يزعم أن عيسى والملائكة حصب جهنم . فأجابه صلى الله عليه وسلم بقوله : ما أجهلك بلغة قومك ، إن(ما) لما لا يعقل . وعذر الشارع عدى بن حاتم الطائى مذ نزل قوله تعالى فى الصوم « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود » فظن عدى الخيطين حقيقيين فبيت تحت وسادته خيطين أبيض وأسود، وظل طول الليل يتأمل فيهما ليتبينهما، فالتبس عليه الأمر ولم يعرف الوقت ، وشكا أمره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : إنك لعريض الوساد[1] ، مشيراً إلى غفلته ، وذهوله عن أساليب التخاطب عند العرب ، وأنه كان عليه أن ينتبه إلى أن الخيط الأبيض والخيط الأسود فى مثل هذا المقام وهو تبين طلوع النهار، لم يكن المراد بهما إلا خيط سواد الليل الملاقى لخيط بياض الصبح فى عرض السماء ، ومع ذلك عذره الشارع ولم يحله على الإلهام والمكاشفة ولا على وسيلة أخرى من وسائل الفهم الذوقى سوى اللغة فأنزل الله كلمة (من الفجر) زيادة على الآية ليرتفع بها اللبس عن أمثال عدى رضى الله عنه .

وسأل عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وهو على المنبر، الناس يوما فقال : ما تقولون فى معنى قوله تعالى (أو يأخذهم على تخوف) فسكتوا فقام شيخ من هذيل ، فقال هذه لغتنا : التخوف التنقص فقال له : هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ قال : نعم — قال شاعرنا زهير :

---

(١) كون الوساد عريضاً يدل على طول العنق وطوله عند العرب آية على البلادة والغفلة .

(تخوّف الرحلُ منها تامِكاً[١] قَرِداً[٢] كما تخوف عود النبعة[٣] السفَنُ[٤])

فقال عمر: أيها الناس عليكم بديوانكم، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فان فيه تفسير كتابكم.

وفى الحديث الشريف «أعربوا الكلام كى تعربوا القرآن» أى إذا أمكنكم أن تفصحوا فى كلامكم أمكنكم إذ ذاك أن تفصحوا عن معانى القرآن وأن تبينوا ما استتر من أسراره.

وقد عرف هذا كبار علماء الإسلام، الذين استبطنوا أسرار الشريعة وحكمها فى هداية الأنام، ولم يستبطنوا فى فهمها أموراً زجت بهم فى بيداء الخيالات والأوهام. فقد قال الإمام الشاطبى الغرناطى المتوفى سنة (٧٩٠) للهجرة فى كتابه (الموافقات)، الذى ألفه فى الكشف عن أسرار التشريع الإسلامى ماخلاصته:

(إن الشريعة عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم، وإن المبتدىء فى فهم اللغة العربية يكون مبتدئاً فى فهم الشريعة. وهكذا كلما تدرج فى مراقى فهم اللغة، تدرج فى مراقى فهم الشريعة. حتى إذا انتهى فى فهم اللغة انتهى فى فهم الشريعة، فكان فهمه فيها حجة، كما كان فهم الصحابة وغيرهم، من فصحاء الأئمة رضوان الله عليهم. وكل من قصر فهمه فى اللغة لم يكن حجة ولم يكن قوله مقبولا. قال الجرمى: أحد أئمة اللغة العربية: أنا منذ ثلاثين سنة أفتى الناس من كتاب سيبويه — يريد أنه كان صاحب حديث، وكتاب سيبويه وإن تكلم فى النحو فقد نبه فى كلامه على مقاصد العرب وأنحاء تصرفاتهم فى ألفاظهم ومعانيهم اهـ).

---

(١) تمسك السنام = ارتفع (٢) القرد = يراد به السمن (٣) النبعة = شجرة القسى السفن = ما ينجر به الخشب.

فصل

ومحصل القول أن الفريق الأول مقلدون جمدوا فى فهم آيات القرآن ومنها آيات النعيم والعذاب — على ظاهر ألفاظ اللغة ، ووقفوا على قشورها وغفلوا عن لبابها ، وما اعتاده أهلها فى تخاطبهم من التفنن فى ضروب الاستعارات ، ومختلف أساليب التمثيل والكنايات .

والفريق الثانى : وهم الصوفية أرباب المواجيد والمذاويق ، أطلقوا أنفسهم من كل قيد لغوى وتجاوزوه إلى مالا علاقة له بقواعد اللغة ، ولا بفنون بلاغتها ، ولا بما اعتاده أهلوها من أساليب الكناية والتمثيل ثم حكموا فى ذلك كشفهم وذوقهم .

أما الفريق الثالث فهم الذين تمسكوا فى فهم آيات القرآن وآيات النعيم والعذاب من اللغة ولبابها بأقوى سبب . واستبطنوا — لكن — أسرار علوم البلاغة ومرامى أساليب العرب .

فصل

فى إيضاح طريقة الفريق الثالث

قلنا آنفا أن الفريق الثالث يعتمدون فى فهم آيات القرآن وخاصة الواردة فى وصف نعيم الجنة وملذاتها المختلفة على لبـــاب اللغة العربية وأساليب التخاطب بها . فإن ذلك هو الحبل الوثيق والعروة التى لا انفصام لها . ويقولون للفريق الأول الذين أخذوا بظاهر الآيات المذكورة وذهبوا إلى أن كل ما ذكر فيها قد أريد به حقيقته العينية :

حقاً إنه لا مانع عقلا يمنع من وقوع تلك الملذات الموعود بها بأعيانها فى الدار الآخرة ، ولا ننكر قدرة الله تعالى على تمتيع الأبرار فى دار كرامته بهذا الضرب من لذوى العيش ، والتقلب فى النعيم وتناول أسبابه ووسائله المذكورة فى القرآن الكريم بحقيقتها . ومَنْ أشد حمقا ممن يرى بعينى رأسه آثار قدرة الله فى هذه الدار الفانية مذ أبدع فيها ما أبدع من الغرائب والعجائب ، وأنعم على الإنسان فيها بصنوف النعم والآلاء وضروب المرافق واللذائذ : من مأكول ومشروب وملبوس ومدوس ثم ، ينكر أن يمنح مثل ذلك أو أكمل منه للأبرار فى دار كرامته ؟ ؟ ومن قدر على إحيائهم حياة ثانية لمكافأتهم على ماعملوا من عمل صالح، كان بالضرورة قادرا على أن يخلق لهم ماكان سبق وخلق لهم مثله فى حياتهم الأولى : فليس الشأن إذن فى قدرة الله ، وشمول أثرها وصلاحية تعلقها بكل ممكن عقلى ، وإنما الشأن الذى حمل هذا الفريق على العدول عما ذهب إليه الفريق الأول ، هو ماسنبسطه فى الفصل الآتى :

فصل

إن العقائد الدينية ، والتعاليم السماوية ، منحتها العناية الالهية للبشر من أجل حملهم على الإيمان بالله وطاعته والحق والعدل لينتظم حالهم ، وتتوفر سعادتهم .

ومن تلك العقائد والتعاليم ، التعليم بسعادة أخروية أبدية ، وقد حقق الإسلام أمر هذه السعادة ، ورغب فيها وحض عليها بضروب مختلفة من أساليب التحبيب والترغيب : فوصف من مظاهرها ووسائلها ما وصف فى

آيات القرآن المفرّقة فى عدة سور من سوره . كل ذلك ليشوق النفوس ، ويستنهض الهمم ، ويحفز العزائم ، إلى البر والعمل الصالح ، وممارسة الخير والفضيلة ، واجتناب الشر والرذيلة .

فيجب اذن أن نتلقى هذه العقيدة الإسلامية على طريقة نافعة لنا ، مؤثرة فى أخلاقنا وآدابنا وانتظام أمر اجتماعنا . وهذا لا يكون إلا بالإيمان بالوحى وتصديق ما قاله الله فى وصف ذلك النعيم والدعة وصنوف اللذة الأخروية . وقد أخطأ جد الخطأ من عطل هذه العقيدة وجعلها روحانية محضة ليس للجسد فيها نصيب ذهابا منه إلى أنها لذة معارف ، وعلوم لدنية ، وملكات نورانية ، ووصول إلى الحضرة ، وتمتع بالقرب ، كما أخطأ أيضاً من جعل ملذات الجنان ، تكون بالإحساس الجسدى المعهود لنا فى دار الدنيا ، واقفين فى فهم النصوص على ظاهرها وقشورها ، مما يجعل أناسا من أبناء هذا العصر ، يتلقون هذه العقيدة بفتور وبغير ما يجب من التوقير ، وبغير أن يكون لها فى همهم وعزائمهم ما ينتظر من التأثير . ولا سيما أن الدقفة[1] ومبغضى الإسلام قاموا فى هذه الأزمنة المتأخرة ، فأكثروا من تعيير المسلمين والقدح فيهم وفى دينهم ، وأكبر تكأة يتكئون عليها فى ذلك عقيدة « ملذات الجنة » مذ يسمعوننا ـ معشر المسلمين ـ نأخذ بظاهرها الحرفى ، ويرون الشراح والمفسرين للقرآن الكريم يذهبون فى وصف تلك الملذات ، وتحقيق أمرها مذهب أبى قلابة القائل : إننا نتخم من أكل الجنة الملتوث بالكافور والزنجبيل فنستعمل الهاضوم .

ولا يحسن بنا أن نتغافل عما يقوله كتاب أوربا وقصصيّوهم وشعراؤهم فينا وفى ديننا وتقاليدنا ، فقد كان لقولهم تأثير عميق فى نفوس أقوامهم .

(١) الدقفة = المظهرون عيوب الناس

وبنى جلدتهم ، فاقتنعوا فضلَ اقتناع بأن المسلمين منحطون فى دينهم وآدابهم وأخلاقهم . وأن الواجب على العالم المتمدن الترصد لهم ، والانتباه لأمرهم ، زاعمين أن المسلمين إذا استتبت لهم سلطة يوما من الأيام — مع ماهم فيه من الكثرة والانتشار فى أطراف المعمور ، والتدين بهذا الدين الغريب الأطوار ، والإيمان بهذا الكتاب الذى يعدهم بشهوات حيوانية (كذا يزعم الغربيون) — أفسدوا العالم ، وقضوا القضاء الأخير على بنى آدم . ذلك فى جملة الأسباب التى أغرت رجال السياسة بنا ، فسعوا مساعيهم المعهودة منذ قرن حتى فلوا شوكتنا ، ومحوا سلطتنا وبثوا وسيبثون دعاة الدين بين أبنائنا فيشككونهم فى ديننا ، ويجلبونهم غير جلبابنا .

ومعظم السبب فى ذلك زعمهم فى الإسلام ، أنه دين شهوانى لا يصلح للبشر ، ولا يلتحم مع رقيهم الفكرى والاجتماعى ، مادام يعد بجنة يؤكل فيها اللحم ويشرب الخمر . وكنت قرأت منذ بضع سنين فى إحدى الجرائد المصرية المسيحية مقالا لبعضهم طعن فيه على العرب وعلومهم ومؤلفاتهم ، وأذكر من قوله هذه الفقرة « ومباحثهم الفلسفية لا تخرج عن معانى الشهوات البهيمية ومطالب النفس البشرية فى هذه الدنيا أو مايخيل إليها فيما بعد الممات » فمسألة « ملذات الجنة » ليست بسيطة كما يريد أن يعتبرها إخواننا الذين يرجحون العمل بقول (أبى قلابة) بل هى مسألة خطيرة ، والبحث فيها لعمرى من أهم ما يجب علينا الأخذ فيه ، حفظا لديننا ، وتنزيها لقرآننا ، وصونا لكرامتنا .

فصل

فى بيان أقوال الفريق الثالث

نعتقد ـ معشر المسلمين ـ أن الله تعالى سيحى الخلائق بعد موتهم ، ونقول بحشر الأجساد كما تقول به سائر الأديان السماوية ، وأن الله أعد للأبرار من الخلق دارا تسمى (الجنة) يتنعمون فيها . ويتقلبون فى صنوف من اللذائذ والمسرات ، تناسب تلك النشأة الثانية .

ومذ أراد الوحى الإلهى أن يصف للمخاطبين تلك اللذائذ والمسرات وشعور أهل النعيم بها ، وصفها لهم بما ألفوه وكلفوا به من ملذاتهم الدنيوية ، على نحو مايشعرون به مفرغا ذلك الوصف فى التراكيب والأساليب التى اعتادوها فى التخاطب بينهم ، ودرجوا عليها فى ملاحن كلامهم ، وذلك لعجز فطرهم وضعف استعدادهم . . عن فهم تلك الملذات الأخروية وتعقلها بالكنه والحقيقة ، فضرب لها مثلا ملذات الدنيا ووسائل اجتلابها وأسباب الشعور بها من مثل الحور واللحم والخمر واللبن والفاكهة والأسرة ، والحرير والذهب ، والفضة ، واللؤلؤ ، ولا يخفى أن تمتيع النفس بهذه المذكورات وتقليب النظر ، فيها وممارسة الحواس لها من أكبر ملذات الدنيا ، وأسباب الترف فيها عند البشر عامة ، وعند العرب المخاطبين بالوحى لذاك العهد خاصة .

فالمنعّم فى الجنة يشعر بلذة عجيبة ، ثم يحس بمسرة غيرها شديدة التأثير فى نفسه ثم بلذة ثالثة ، وبأخرى غيرها رابعة وهكذا ، فتتألف من مجموع هذه الملذات والمسرات ، وشعور النفس بها حالة صورها الوحى الإلهى

للبشر بحالتهم التى يشعرون بها ، منذ يتناولون ملذوذاتهم الدنيوية المتعددة الأنواع ، المختلفة الأشكال ويمارسون أسبابها ووسائلها كلّ ذلك تشويقا لهم ، وحفزاً لهممهم إلى الإيمان والعمل الصالح وطاعة الله .

ولا يلزم من هذا أن تكون ملذات الجنة روحانية أو معنوية ، لا وجود لها فى الخارج ، ولا يشعر بها الجسم : لأنك إذا ضربت جود حاتم المعهود لك مثلاً لجود زيد لا يلزم منه أن يكون جود زيد أمراً معنوياً لا وجود له فى الخارج ، وإذا ضرب الله لنا لحم الطير مثلا لملذة من ملذات الجنة لا يلزم منه أن تكون ملذة الجنة روحانية لا يحس بها الجسد ، ويوشك أن يكون الشرع قد نقل الكلمات الدالة على المسرات من معناها اللغوى الدنيوى إلى معنى اصطلاحى جديد أخروى ، فنقل كلمات الخمر واللبن ولحم الطير والحور والولدان ، من معانيها المعهودة فى الدنيا إلى معان أخرى ، وهى وسائل اللذات والمسرات التى تكون فى الجنة ، فهذه الكلمات إذن لها معان لغوية ومعان أخرى عرفية أو شرعية ، وهذا ككلمات الصلاة والصوم والزكاة ، وغيرها مما له معان لغوية ومعان شرعية ، فالخمر فى اللغة اسم للسائل المسكر المعروف ، وهو فى الشرع أو فى لغة القرآن واصطلاحه اسم لضرب من ملذات الآخرة تكون فى الجنة ، ولما كانت هذه المسرات الأخروية متنوعة مختلفة فى درجة لذاتها ، أو فى درجة استحقاق مستحقيها ، نقل الشرع إليها الكلمات الدالة على ملذات الدنيا المتنوعة ، ومسراتها المختلفة . ولا يتوهم أحد أن ماقلناه هو بعينه قول المتصوفة السابق لأن ، المتصوفة إنما يجعلون مدلولات هذه الألفاظ الدالة على الملذات أموراً ذوقية ، يتحسس بها طائفة خاصة ، بينما نحن نقول بأن لتلك الألفاظ مدلولات علوية تلائم الحياة ،

الحياة الأخروية لا نستطيع اكتناهها فى حياتنا الدنيا ، وإنما فعل الشرع ذلك تفاديا من وضع كلمات جديدة لهذه المسرات الأخروية ،ليست من لغة العرب المخاطبين ولا يفهمونها ، والحكمة تقضى أن لايخاطبهم إلا بما يفهمون لتنهض الحجة عليهم .وما فعله الشرع من نقل هذه الكلمات من معنى إلى معنى لم يكن بدعا من عادة العرب . قال أبو عبيدة فى شرحه على نقائض جرير والفرزدق : (أصل معنى الصَيد داء يأخذ الإبل فى رؤوسها فتميل رؤوسها من الوجع، ثم نقلت العرب الصَيد إلى الناس فقالوا. فلان أصيد إذا كان متكبرا يميل رأسه تكبراً وتجبراً ، فالصيد من الحروف (أى الكلمات) المنقولة أى الألفاظ التى تكون للشىء ثم تنقل إلى غيره وقد فعلته العرب فوسعت بذلك كلامها) .

فصل

(فى ذكر شاهد من أقوال العرب على صحة قول هذا الفريق)

نقول ولكن هل عهد فى أساليب العرب ، وملاحن خطابهم، وكنايات لغتهم التى قلت إنها الحبل الوثيق فى النسور إلى معانى آيات القرآن شىء من هذا القبيل وإلى هذا الحد فى التصوير والتمثيل ؟ ؟ .

أقول إن ذلك مستفيض فى كلامهم وأشعارهم التى ضمنوها وصف أحوالهم والحكاية عن أطوارهم ، استفاضة لا يعلمها إلا من أطال النظر فى أقوالهم ، وعمل بنصيحة سيدنا عمر رضى الله عنه فى مراجعة دواوينهم .

أكثرت الخنساء فى شعرها من مدح أخيها صخر ، ووصف سجاياه ،

وتقريظ ما أوتى من خصال المجد والكرم . فقيل لها : « مامدحت أخاك حتى هجوت أباك » يعنون أنها بهذا الاكثار من المدح فى أخيها ، تكون كأنها رجحته على أبيها عمرو بن الشريد فى مناقب المجد ، وخصال الكرم ، فقالت مجيبة على ذلك :

جارى أباه فأقبلا وهما ... يتعاوران[1] مُلاءة الحُضْر
حتى إذا نزت القلوب وقد ... لزت هناك العذر بالعذر
وعلا هتاف الناس ! أيهما ؟ ... قال المجيب هناك : لا أدرى
برزت[2] صحيفة وجه والده ... ومضى على غلوائه يجرى
أولى فأولى أن يساويه ... لولا جلال السن والكبر
وهما وقد برزا كأنهما ... صقران قد حطا إلى وكر[3]

(ملاءة الحضر) « الحضر » جرى الخيل فى حلبة السباق ، وهذا الجرى ينشأ عنه غبار ينتشر فى الفضاء فشبهته الشاعرة بالملاءة وهى الثوب المعروف ويسمونه اليوم (ملاية) (يتعاوران) أى يجذب ملاءة الغبار ويلتحف بها هذا مرة وهذا مرة ، تقول إن أباها وأخاها تجاريا فى حلبة السباق فأقبلا معاً يتجليبان فى غبار واحد .

(حتى إذا نزت القلوب) قلوب النظارة (أى المتفرجين) ووثبت فى صدورهم من فرط شغفهم بمعرفة السابق منهم .

---

(١) ويروى يتعاقبان ويتنازعان ويتجاذبان .
(٢) ويروى (برقت) وصحيفته الوجه بشرة جلده .
(٣) ويروى هذا البيت متقدما بعد جارى اباه . الخ .

(وقد لزت إذ ذاك العذر بالعذر) « العُذر » جمع (عذار) ككتب جمع كتاب والعذار ماسال من اللجام على خدالفرس ، تقول الخنساء : وقد كان فى أثناء السباق لجام فرس الأب ولجام فرس الابن أو خد فرس هذا وخد فرس ذاك متقابلين متحاذيين .

(وعلا هتاف الناس) ارتفعت أصواتهم من كل جانب — كماهى عادة النظارة عند إقبال خيل السباق نحو الغاية — قائلين : أيهما السابق الأب أو الابن ؟ فكان أحدهم يجيب الآخر بقوله (لا أدرى) أى من السابق منهما .

(عندها برزت صحيفة وجه والده) أى ظهر وجه الأب للنظارة فعرفوا أنه هو السابق ، (ومضى) الابن (على غلوائه) غلواء الأب وشوطه فى الميدان (يجرى) وراءه متأثراً له .

ثم قالت (أولى فأولى الخ) أى أن أخاها جدير بأن يساوى أباه ويحاذيه ولا يدعه يسبقه ، لكنه تأخر قليلا مراعاة لسن والده ، وجلال شيخوخته . ثم شبهتهما وقد وصلا إلى الغاية بصقرين وقعا منقضين على وكرهما قيل لأبى عبيدة : « ليست هذه الأبيات موجودة فى مجموع شعر الخنساء » فقال : « العامة أسقط من أن يجاد عليهم بمثل هذا يريد أن هذه القطعة الشعرية البليغة فى أسلوبها وتمثيلها مما يضن به إلا على الخاصة من أهل الفضل والنبل .

والذى يقلب نظره ، ويعمل فكره فى شعر الخنساء هذا ، يعلم أن كل ما تريده أن تجعل أباها وأخاها فى مستوى واحد ، من توفر خصال المجد والكرم فيهما ، لكنه يقف موقف الذاهل المتسائل : كيف هذا ؟ وكيف أبرزت هذا المعنى مبرز سباق واقعى ، فى ميدان خارجى ، شوهد فيه جرى

وغبار ولجم متلازة ، ونظارة مشاهدون للسباق ، لهم قلوب مضطربة مستشرفة إلى المتسابقين، كى تتبين من السابق منهما الأب أو الابن ، بحيث ترتفع أصواتهم ويشتد تحاورهم، ويقول بعضهم لبعض: أيهما السابق؟ فيجيبه الآخر « لا أدرى » ثم يظهر لهم وجه الأب سابقاً ووجه الابن مسبوقا لا حقا يجرى خلفه فى شوطه . إن للعرب ممادح ومناقب وخصال مجد يفاخرون بها : الفصاحة والبلاغة فى الشعر والخطابة ، الحلم والأناة ، إباء الضيم ، ترك البغى ، الوفاء بالوعد ، عدم التعرض للجارات بريبة ، الشجاعة فى الحرب ، النكاية فى الأعداء ، الدفاع عن الحوزة ، حفظ الجوار ، العفة عن السلب والغنائم ، المن على الأسرى والسبايا ، بذل القرى للعفاة والضيفان اللعب بالقمار وبذل المال المكسوب به فى إطعام المساكين ولاسيما فى زمن الشتاء وسنى الجدب ، الوفادة على الملوك والجلوس معهم على أسرتهم وأخذ جوائزهم ، تحمل الديات وعقد الصلح بين القبائل المتحاربة وحقن الدماء فى نظير ذلك من خصال الكرم ، ومناقب المجد التى استدعتها حالة محيطهم ، وطبيعة اجتماعهم ، والخنساء إنما تريد أن تقول : إن أباها وأخاها سواء فى الخصال والمناقب المذكورة . فلماذا لم تعددها وتقتصر على سرد الجمل الدالة عليها مفرغة فى قوالبها الحقيقية ؛ وتقول أن أبى مثل أخى فى كيت وكيت من الأخلاق والأوصاف ؟ بل نراها أركبتهما جوادين ، وأنزلتهما الحلبة ، وعقدت عليهما الغبار ، وحشرت حولها النظارة ، وجعلتهم تخفق قلوبهم ، وترتفع بالهتاف أصواتهم من أجل معرفة السابق منهما . يتساءل قارىء شعر الخنساء عن كل هذا من فعلها فنقول له : لا جرم أن عدولها عن سرد المحامد المذكورة — وإيراد كلماتها مستعملة فى معانيها الحقيقية الموضوعة لها

— إلى هذا الأسلوب التمثيلي، يكون أوقع فى النفس، وأشد تأثيرا على الحس. وأعظم تصويرا للغرض من ذكر الكلمات بمعانيها الحقيقية. ونقول أيضا أن تمثيلها لمساواة أبيها وأخيها فى مناقب المجد بهذا السباق، ومالابسه من الأقوال والأفعال لا ينفى تلك المناقب، ولايحط من شأنها، ولا يجعلها معنوية بحيث لا تشعر بها الحواس شعورا حقيقيا، وإذا كنت ذا قدم راسخة فى فهم لغة العرب وملاحى كلامهم. تنكر أشد الانكار أن تكون الخنساء تريد فى شعرها أنه حصل سباق بالفعل بين أبيها وأخيها، وأن الغبار سطع، وصوت النظارة ارتفع، وأنهم تناظروا وتحاوروا فى أيهما السابق، وأن الأب سبق الابن أخيرا، وجاء الابن يجرى فى أثره — كل ذلك على وجه الحقيقة لا شىء من التمثيل فيه — تنكر ذلك وتعده حاطا من قدر الكلام وقيمته البلاغية. وأنت فى الوقت نفسه تعتقد أن حصول السباق بالفعل بين الابن والأب، أمر جائز الوقوع وفى دائرة الإمكان.

وهكذا ملذات الجنة ومسراتها وسائر ضروب النعيم فيها: فإن ماضربه الوحى الإلهى لها مثلا — من وسائل راحتنا ودعتنا وجميع أنواع لذواتنا المعهودة لنا فى دار الدنيا — لا يجعلها معنوية ولا روحانية.

وزد على ذلك أن ملذات الآخرة وأسباب نعيمها، لا يمكن للبشر ما داموا فى الدنيا أن يفهموها بكنهها وحقيقتها، فكانت الحاجة إلى ضرب ملذاتنا الدنيوية لها مثلا، أمسّ من الحاجة فى شعر الخنساء التى كان يمكنها أن تعدد خصال الكرم والمجد، بكلماتها المستعملة فى معانيها الحقيقية، ثم تقول إن أخاها مثل أبيها فى تلك الخصال.

ومحصل القول أن حمل آيات النعيم ووصف اللذائذ الأخروية على المعنى

الكنائى والأسلوب التمثيلى - كما وقع فى قول الخنساء وأقوال كثيرين غيرها من فحول فصحاء العرب وبلغائهم - لا يضر تلك الآيات ولا يحط من قدر بلاغتها وقيمة إعجازها . بل هو على العكس يزيدها رونقا وبلاغة وحسنا ، ويرفعها درجات فى معارج الإبداع والإعجاز

فصل

اعتراض وجواب

قد يقول قائل : إن ما ذكرته من حمل آيات النعيم ووصف الملذات على التمثيل منظور فيه إلى الصناعة اللفظية ، والموازنة بين أساليبها ، واختيار ما كان أحسن أسلوبا ، وأغزر بالبلاغة شؤبوبا ، من أساليب أهل اللسان . وطرق التخاطب بينهم ، ولكن هل هناك من داع وجدانى ، أو باعث عقلى يرجح لنا الحمل على التمثيل ، وجعل ملذات الدنيا كنايات عن ملذات الجنة ؟ وما يضر فى العقل إذا جعلنا ملذات الدنيا هى المقصودة بالذات ، من ذكر ملذات الجنة وأنها هى التى يتنعم بها المتنعمون ، ويقصف فى لذواها المؤمنون ، مادام التنعم بعينها ممكنا ، ومادامت قدرة الله صالحة لذلك والجواب على هذا أمور :

الأول

إن دار الآخرة دار الكمال المطلق ، وهى مغايرة بطبيعتها وسننها وجميع نواميسها لدار الدنيا التى كل ما فيها زائل وناقص ومشوب بألم وتنغيص . فتكون ملذات الدار الآخرة ، وهى الجنة مغايرة بحقيقتها لملذات الدنيا

ولأسباب النعيم التى فيها . وقد أفصح عن هذا سيدنا ابن عباس رضى الله عنهما فقال ما نصه « ولا يشبه شيء مما فى الجنة ما فى الدنيا إلا الأسماء » وفى رواية عنه « ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء » وهذا صريح فى أن الوحدة بين لذات الدنيا ولذات الآخرة وحدة مشاركة بالاسم ، لا وحدة مشاركة بالكنه والجنس . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر مصداق ذلك فى كتاب الله : فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . وسئل صلى الله عليه وسلم : « هل فى الجنة إبل ؟ » فقال للسائل : إن يدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك وقرت عينك» وهذا هو الجواب الحق فى أمر ملذات الجنة ، وأسباب نعيمها ، لا يصدر إلا عن مثله صلى الله عليه وسلم فالمتنعمون فى الجنة يرون فى ملذاتها مالم يروه قط فى ملذات دار الدنيا، فهى إذن غيرها ولكن لها اسمها ومشاركتها لها بالاسم لا يجعلها هى هى .

وبهذا فسر بعض المفسرين قوله تعالى (وأتوا به متشابها) فقال « أتوا برزق الجنة متشابها بالاسم مع رزق الدنيا أما هذا فغير ذاك » وأصرح من هذه الآية فى الدلالة على ما ذكرنا الآية الأخرى وهى قوله تعالى(مثل الجنة التى وعد المتقون : فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى) فهو تعالى جعل مافى الدنيا من خمر ولبن وعسل مثلا لما فى الجنة يقرب بها إلى أذهان المؤمنين ويصور لهم ما فيها من الملذات التى لا يمكن أن تعقل إلا بعد الموت ، ودخول

الجنة ، وانظر كيف قال مثل الجنة كذا وكذا ولم يقل الجنة هى كذا وكذا

الثانى

ذكر الوحى مشتهيات ومسرات، وأسباب لذوى وقصوف ونعيم، يتنافس بها العرب المخاطبون لذاك العهد ، ويعدونها من أكرم الملذات ، وأطيب الطيبات : من مثل الخمر الممزوج بالكافور والزنجبيل ، ومن مثل أساور الفضة والذهب ، ومن مثل ثياب الحرير الخضر ، ومن مثل لحم الطير والحور والكأس الدهاق . واسمع ما قاله لقيط بن زرارة سيد بنى تميم يحرض قومه على الحرب يوم جيلة

إن الشواء والنشيل والرغف وصفوة القدر وتعجيل الكتف
والقينة الحسناء والكأس الأنف للطاعنين الخيل والخيل خُنُف

(الشواء) اللحم المشوى (النشيل) اللحم النضيج المنشول من القدر (صفوة القدر) مختار ما فيها (تعجيل الكتف) لحم الكتف أطيب اللحوم عند العرب . (الكأس الأنف) التى لم يشرب منها قبل ذلك (خنف) جمع خنوف : الفرس تمسى[1] فى شق وذلك يكون منها وقت المطاردة . يقول لقيط إن هذه الأشياء والتمتع بها إنما يستحقها الأبطال الذين يحققون شجاعتهم وصبرهم يوم الطعان ، ومصاولة الأقران : وقد راعى الوحى أخلاق العرب وما ألفوه من المرافق وأسباب الملذات الجسدية، فى طورهم الاجتماعى الذى كانوا فيه لحين نزول القرآن ، كما راعى أساليبهم وملاحنهم فى تخاطبهم ، فذكر طائفة من الملذات وأسباب المسرات المعهودة لديهم ، ثم مثل لهم ملذات الآخرة بها ، تقريبا لها من أفهامهم ، ومتناول أذهانهم . ولو قلنا إنها هى

(١) تمسى = تبطىء

نفسها الموعود بها فى الجنة للزم منه نسبة النقص إلى دار الكمال : إذ أن الأمم من غير العرب ، لا سيما فى هذه الأزمنة المتأخرة ، توصلوا بالعلم والصناعة والاختراع واكتشاف نواميس المادة : إلى أنواع من الأشربة الروحية ألذ وأطيب وأفكه من الخمر الممزوج بالكافور والزنجبيل وإلى ضروب من الحلى والزينة أثمن وأنفس من أساور الذهب والفضة ، وإلى صنوف من اللبوس والثياب أجمل وألين من ثياب الحرير الأخضر ، وإلى أشكال من المتاع والأثاث والماعون وسائر المرافق (موبيليات) أروع وأنفع وأوفى بالغرض — الذى يتطلبه الإنسان فى معيشته المنزلية — من الآنية والصحاف والأكواب والأرائك والنمارق والزرابى التى كان يستعملها العرب ، لحين نزول القرآن ويفهمونها من آياته . فإذا كان المراد بالملذات وأسبابها المذكورة فى القرآن ، أعيانها وحقائقها اللغوية كان لبعض البشر من أبناء هذا العصر والعصور الآتية ، أن يقولوا : كيف تعدنا يا ربنا بنعيم وملذوذات ، هى جهد أقوام أميين فى طور بداوتهم ، وها نحن فى طاقتنا فى هذه الدنيا الفانية أن نصطنع أنفس وأحسن منها . بل تعدنا أحيانا بشىء تمجه إذ واقتا ، وتعافه نفوسنا ، كالخمر الممزوج بالكافور والزنجبيل .

هذا ويظهر من تطورات العمران البشرى ، وترقيات المدنية الحديثة وصعودها آنا فآنا ، فى معارج الاختراع والاكتشاف واتقان الصناعة ، أنها ستصل من وسائل الترف والتنعم ، وأسباب استكمال الملذوذات الجسمانية حدا قد لا تتصوره العقول اليوم ، كما كانت من قبل لا تتصور ، إمكان طيران الإنسان فى عنان السماء .

فالقول بأن ماذكر فى القرآن من ضروب اللذة ووسائل الدعة والخفض

والنعمة سيكون هو بحقيقته لنا فى الجنة — قول لم يراع فيه كمال تلك الدار الآخرة التى وعد بها الله أولياءه والأبرار من خلقه . بل لم يراع فيه السر الذى أنزلت من أجله آيات الوعد بالنعيم الأخروى : ألا وهو الترغيب فى الطاعة وحفز الهمم نحو العمل الصالح .

أما إذا جعلنا ذكر تلك الملذات فى الآيات من باب التمثيل بها ، وأن ما خبأه الله لأهل طاعته من المسرات وضروب الملذات لا يكتنه كنهه ، ولا يحاط بوصفه ، كان ذلك أليق بالدار الآخرة ، وأشد ملاءمة لمقاصد القرآن الذى أنزل للأميين . ومن ثم كان وصف الأمية مراعى فى تعاليمه وأحكامه وسائر ما قرره من الشرائع ، وقد عقد الإمام الشاطبى لهذا المعنى فصلا فى كتابه (الموافقات) استدل به على ما ذكرنا ، من ذلك قوله : « وبين (أى القرآن) من مأكولات الجنة ومشروباتها ما هو معلوم عندهم (أى عند المخاطبين الأميين) كالماء واللبن والخمر والعسل والنخيل والأعناب وسائر ما هو عندهم مألوف ، دون الجوز واللوز والتفاح والكمثرى ، وغير ذلك من فواكه الأرياف وبلاد العجم بل أجمل ذلك فى لفظ الفاكهة » اهـ بلفظه .

وما قاله الشاطبى فى مواد الأكل ، نقول مثله فى أدوات النقل قال تعالى (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون) .

فانظر كيف امتن الله على أناس ذلك الزمان ، بما ألفوه وعرفوه من

من وسائط النقل فذكر لهم الأنعام : أى الإبل ثم الخيل والبغال والحمير دون القطر البخارية والترامات الكهربائية ، وغير ذلك من سيارات وطيارات بل أجمله كله فى قوله (ويخلق ما لا تعلمون) .

الثالث

إن الوصائف والمطاعم والمشارب والملابس والأوانى وضروب الزينة هى مما يزهد فيه الكثيرون من أهل الدنيا — لا نمثل لك بالأنبياء والصديقين والربانيين بل ببعض ذوى النفوس الكبيرة ، والعقول الثاقبة ، والحكمة الرائعة ، من أبناء الدنيا ذاتها الذين قلما يفكرون أو يشتغلون للآخرة — هؤلاء أنفسهم يعجبون من كونهم خلقوا مقهورين فى دنياهم على تناول الطعام والشراب وعلى إنفاق ساعات من أعمارهم فيها وفى النوم — ولا سيما أمر الملامسة واستخذاء النفس لها — ويتمنون لو كانوا خلقوا أنزه وأكرم من أن يقفوا هذه المواقف التى يشبهون فيها العجماوات . فإذا كان هذا شأن عقلاء البشر وحكمائهم بالنسبة إلى ملذات الدنيا ومبلغ اشمئزازهم منها ، وهى من مقومات حياتهم ، فكيف يكون الحال إذا قلنا لهم : إن ربكم أعد لكم فى دار الكرامة والحياة السرمدية عين هذه الملذات جزاء طاعتكم ، وحسن أعمالكم ، لاجرم أنهم يشعرون بشىء من الغضاضة فى أنفسهم ، مذ يسمعون أن مكافأتهم فى الآخرة ستكون بما فيه يزهدون فى الدنيا ، أما إذا قلنا لهم إن مسرات الجنة وملذاتها مما لاعهد لكم به وإن الوحى الإلهى تنزل فتمثل تلك المسرات والملذات بما ألفه البشر ، وأولعوا به من المآكل والمشارب والملابس والملامس تقريبا لها من عقولهم — إذا قلنا هذا لهؤلاء كان قولنا أوقع فى

قلوبهم ، وأدنى لتحريك عواطف الطاعة والإذعان والإيمان فى نفوسهم . وصفنا لك مواقف الحكماء العقليين إزاء ملذات الدنيا ، ودونك ما قاله أبو حامد الغزالى فى وصف مواقف الحكماء الإلهيين إزاء تلك الملذات : « لم يبق للدنيا فى قلب الواحد من هؤلاء قرار : حتى إنه لا يحب الأكل والشرب أيضاً ، بل تكون رغبته فيهما كرغبته فى قضاء الحاجة ، من حيث أنه ضرورة الحياة : فلا يشتهى الطعام لأنه طعام ، بل لأنه يقويه على العبادة . ويتمنى لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل ، فلا يبقى فى قلبه حظ فى الفضول الزائدة على الضرورة ، ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده لأنه ضرورة دينية فلا يكون له هم إلا الله تعالى اهـ . ويقول بلغاء الحكماء فى النعى على المنغمس فى الملذات الجسدية حاله وانغماسه « فلان لا هم له سوى الاكتراش والافتراش » و« فلان اكتفى من دنياه بحاجة قبقبه وذبذبه » (وفلان يسعى لغاربه أى لبطنه وفرجه) . وقال سيدنا على بن أبى طالب فى كتابه إلى عامله سهل بن حنيف يؤنبه على شهود مأدبة دعاه إليها بعض أغنياء البصرة :

« ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز . ولكن هيهات أن يغلبنى هواى ، أو يقودنى جشعى ، إلى تخير الأطعمة . ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له فى القرص . ولا عهد له بالشبع . أو أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى ، وأكباد حرى أو أكون كما قال القائل :

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القد

أأقنع من نفسى بأن يقال أمير المؤمنين ، ولا أشاركهم فى مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم فى خشونة العيش . فما خلقت ليشغلنى أكل

الطيبات : كالبهيمة المربوطة همها علفها أو المرسلة شغلها تقمها تكترش من أعلافها وتلهو عما يراد بها، وقد اطلعت أخيراً على كتاب (تاريخ حكماء الإسلام) تأليف ظهير الدين أبي الحسن البيهق ـ وهو من الكتب النادرة جلب من خزائن أوربا إلى دمشق مصورا بالفوتوغراف ـ وآخر من ذكره المؤلف فى كتابه من حكماء الإسلام (الأمير السيد الإمام زين الدين الحسينى الجرجانى الطبيب فقال عنه : إنه أحيا الطب وسائر العلوم بتصانيفه اللطيفة التى سارت بها الركبان، وهى كتب مباركة ،ومنها كتابه فى الرد على الفلاسفة .قال المؤلف وقد رأيت الإمام زين الدين بسرخس سنه (٥٣١) بعد أن بلغ من العمر أطوريه (أى أقصاه) ثم قال ومن فوائده رسالة له نوردها بتمامها ونختم بها الكتاب وهى :

ما لى أراك يا أخى — أيدك الله وإياى بتوفيقه — شديد السكون إلى هذه الدنيا الزائلة ، والدار الفانية ، كثير الميل إلى ترفيه هذا الجسد المظلم الكثيف ، الذى هو أجمع مركب وأخبث مسكن للنفس ، سهل الانقياد لقوتيك العَصَبيّة والشهوانية اللتين تحركك إحداهما إلى السبعية والأخرى إلى البهيمية ، صعب المقادة ، عسر الإجابة لقوتك العاقلة التى تؤويك جنّة المأوى ، وترقيك إلى الدرجة العليا ؟ ألعلك قد انخدعت بل اغتررت بمباشرة هذه اللذات التى كلها فى الحقيقة آلام وأى آلام ؟ أما علمت أن اللذات الدنيوية كلها فى أكل الطيب وشرب العذب ولبس اللين ، وركوب المهملج (المذلل المنقاد من البرازين) وقهر العدوّ ، والتمتع بالنساء ؟ وهذه كلها حاجات متعبة وخصوصا للعقلاء ، وضرورات مزعجة للمتيقظين من العلماء ، لأن الأكل والشرب إنما هما لدفع ألم الجوع والعطش ، واللبس أيضاً لدفع

ألم الحر والبرد ، والركوب لمنع تعب المشى ، وقهر العدو لطلب التشفى من ألم الغيظ ، والنكاح إنما هو طلب لذة بدنية بمباشرة عضو حقه أن يستر ويستحى من كشفه ، وخصوصا من الرجل الرزين العاقل الذى يكره أن يكشف عن ساعده مثلا، ثم فى تلك الحال يحتاج إلى كشف عضوه المستور وربما دعاه استلذاذه إلى كشف مثل ذلك العضو من المفعول . فما أخس هذه اللذة عند العاقل المتيقظ، وما أهونها عليه وما أقبحها عنده ، وما أفضحها لديه . هكذا ثم لاخلاف أن الحاجة غير طيبة ولا لذيذة ولا مطلوبة ولا محبوبة ، وهذه الأحوال أعنى اللذات كلها كما ترى حاجات ، والحاجات الآم ، ولو كانت فيها فضيلة لما استغنت الملائكة المقربون عنها ولا تنزهت منها وكل لذة فى أن لا يؤلم جوع ، ولا يُورِدى عطش ، ولا يتعب مشى ولا يؤذى حر ، ولا برد ، ولا ينغص العيش حَرَد ولا غضب (كأن معنى قوله وكل لذة فى أن لا يؤلم الخ : وما معنى اللذة من تلك اللذات وكل شأنها هى أن لا يؤلم جوع الخ) ولقد صحبت من إذا جاع صبر طويلا ، ثم إذا قدم إليه الطعام بكى ثم أكل ، وكان يقول « اللهم أنت خلقتنى وأحوجتنى ، وبالخطاب أكرمتنى ، فهب لى ما وعدتنى » وكان هذا الكلام شكاية من هذا الصدّيق لألم الحاجة . نعم من عرف كنه ألم الشىء فإن تألمه به يكون أشد وأكثر وأتم وأبلغ . وقد كتبت إليك هذه منبهالك وعالما بأنك تتنبه بأدنى إشارة وتحريك لسان . وأنا منذر بأن استعمل هذا الدعاء وأقول (اللهم إنى أسألك غير متحكم عليك أن تكفينى مؤونة هذا الجسد الذى هو سبب كل مذلة ، وأصل كل حاجة والجاذب إلى كل بلية ، والطالب لكل خطية ، وأن تيسر الخلاص منه ، على

أسهل وجه ، وأفضل حال إلى خير معاد ، وأحسن مآل ، بمنك وفضلك ، ياذا المن والإفضال ، فإن رأيت أن توافقنى باستعماله تخفف رحلك ، وشمر ذيلك وأزح علتك ، وقصر أملك ، وطهر خلقك ، وثق طرفك ، تبلغ وتسلم وتسد ولا تندم . والسلام) انتهى . أقول فمثل هذا الحكيم الإلهى الذى وصف اللذات بما وصفها وختم كلامه بهذا الدعاء الذى يتضمن التنزه عن الجسد ولذاته . هل يعقل أنه فى دار الجنان يقابل بمكافأة وإحسان ، من شكل اللذائذ التى هرب منها ، ودعا الله أن ينقله إليه من شدة كرهه لها ، وترفعه عنها ؟ اللهم لا . وما أحسن ما قاله شهاب الدين السهروردى المقتيل فى قصيدته الحائية .

قم يا نديم إلى المدام وهاتها فيحانها قد دارت الأقداح
من كرم إكرام بدن ديانة لا خمرة قد داسها الفلاح

واختلاف أنظار علماء الإسلام فى هذه الملذات وهل هى روحانية أو جسدانية ؟ وهل من دأب الربانيين الاهتمام بها إذا كانت جسدية ؟ هذا الاختلاف كان موجودا قديما بين علمائنا وكلامهم فيه مبثوث فى ثنايا المصنفات التى تركوها .

وأصرح ما جاء فى هذا المعنى ما كتبه أبو حيان التوحيدى ، وبنى عليه إحدى مقابساته فى كتابه الذى سماه (المقابسات) ص ١٩٤ طبع مصر سنة ١٩٢٩ وهى المقابسة الخامسة والثلاثون :

(٣٥)
(مقابســـة)

(فى عجيب شأن أهل الجنة وكيف لا يملون النعيم والأكل الخ)

(سمعت أبا إسحق النصيبي المتكلم وكان من غلمان جُعل ، يقول : ما أعجب أمر أهل الجنة ؟ قيل: وكيف ؟ قال : لأنهم يبقون أبدا هناك لا عمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح . أما تضيق صدورهم ؟ أما يكلون ؟ أما يربأون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة التى هى مشاكلة لحال البهيمة ؟ أما يأنفون ؟ أما يضجرون ؟) قال أبو حيان (فأعدت على أستاذى أبى سليمان المنطق قوله بنصه، فقال فى الجواب : إنما غلب عليه (أى على النبيصى) هذا التعجب من جهة الحس لا من جهة شيء آخر . وهكذا كل ما فرض بالحس أو لحظ بالحس، لأنه قد صح أن شأن الحس أن يورث الملال والكلال ويحمل على الضجر والانقطاع ، وعلى السآمة والارتداع، وهذا منه فى ذوى الإحساس ظاهر معروف، وقائم موجود ، وليس كذلك الأمر فى المعاد إذا فرض من جهة العقل لأن العقل لا يعتريه الملل ، ولا تصيبه الكلفة ولا يمسه اللغوب ، ولا يناله الصمت ولا يتحيفه الضجر، وهكذا حكمه فى الشاهد الحاضر ، والعيان القاهر ، لولا عقل النبصي ونظرائه . ألم يعلم أنه فى هذه الدار على شوبها وفسادها وكدرها وبثورها ، كان العقل لا يكل معقوله أبدا ولا ينقضى منه أبدا البتة ، ولا يطلب الراحة عنه بوجه ؟ بل كان العقل إذا وجد معقوله، وتوحد به صار هذا فذًّا حين لا يوجد بينهما بين بحال. فكيف إذا كان المنقلب إلى عالمه الصرف الذى لا حيلولة ولا تغير له ، وهو

الوجود المحض والأمر الصرف ، والشيء الذى كلما عرفته با لصفة بعد الصفة كان عنها أعلى ، وكلما أوضحته بالعبارة بعد العبارة كان عنها أخفى .

ويظهر من جواب المنطقى ،أنه يعتقد أن أهل الجنة إنما يلامسون ملذاتها بعقولهم الباطنة لا بحواسهم الظاهرة، والعقول لا تمل ولا يعتريها لغوب كما هو مشاهد من حالها فى دار الدنيا .

هذا ما قاله أبو حيان ونحن فى رسالتنا هذه لا نقول بما قاله من أن المتنعم هو العقول بل الحواس . ولكن المتنعم به ملذوذات تناسب تلك الحواس فى تلك الدار، وليست كملذوذات حواسنا الدنيوية فى دارنا الدنيوية.

وقال ابن مسكويه فى كتابه (تهذيب الأخلاق) : (وقد ظن قوم أن كمال الإنسان وغايته هما فى اللذات الحسية ، وأنها هى خير المطلوب والسعادة القصوى، وظنوا أن جميع قواه الأخرى،إنما ركبت فيه من أجل هذه اللذات والتوصل اليها، وأن النفس الشريفة التى سميناها ناطقة إنما وهبت له ليرتب بها الأفعال ويميزها ويوجهها نحو هذه اللذات ، لتكون الغاية الأخيرة هى حصولها على النهاية والغاية الجسمانية . وظنوا أيضا أن قوى النفس الناطقة أعنى الذكر والحفظ والروية كلها تراد لتلك الغاية : قالوا :وذلك أن الإنسان إذا تذكر اللذات التى حصلت له بالمطاعم والمشارب والمناكح ، اشتاق إليها وأحب معاودتها ،فقد صارت منفعة الذكر والحفظ إنما هى اللذات وتحصيلها ولأجل هذه الظنون التى وقعت لهم ، جعلوا النفس المميزة الشريفة كالعبد المهين وكالأجير المستعمل فى خدمة النفس الشهوية ، لتخدمها فى المآكل والمشارب والمناكح وترتبها لها وتعدلها [1] إعدالا كاملا موافقا . وهذا هو

(١) أعدل الشيء أقامه وسواه

رأى الجمهور من العامة الرعاع وجهال الناس السقاط ، وإلى هذه الخيرات التى جعلوها غايتهم تشوقوا عند ذكر الجنة والقرب من بارئهم عز وجل . وهى التى يسألونها ربهم تبارك وتعالى فى دعواتهم وصلواتهم ، وإذا خلوا بالعبادات وتركوا الدنيا وزهدوا فيها فإنما ذلك منهم على سبيل المتجر والمرابحة فى هذه بعينها . كأنهم تركوا قليلها ليصلوا إلى كثيرها ، وأعرضوا عن الفانيات منها ليبلغوا إلى الباقيات . إلا أنك تجدهم مع هذا الاعتقاد ، وهذه الأفعال إذ ذكر عندهم الملائكة والخلق الأعلى الأشرف ومانزههم الله عنه من هذه القاذورات ، علموا بالجملة أنهم أقرب إلى الله تعالى، وأعلى رتبة من الناس وأنهم غير محتاجين إلى شيء من حاجات البشر . بل يعلمون أن خالقهم وخالق كل شيء الذى تولى إبداع الكل ،هو منزه عن هذه الأشياء متعال عنها غير موصوف باللذة والتمتع مع التمكن من إيجادها ، وأن الناس يشاركون فى هذه اللذات الخنافس والديدان وصغار الحشرات والهمج من الحيوان وإنما يناسبون الملائكة بالعقل والتمييز) إلى أن قال : (إن الإنسان ذو فضيلة روحانية يناسب بها الأرواح الطيبة التى تسمى ملائكة ، وذو فضيلة جسمانية يناسب بها الأنعام لأنه مركب منها : فهو بالخير الجسمانى الذى يناسب به الأنعام مقيم فى هذا العالم السفلى مدة قصيرة، ليعمره وينظمه ويرتبه حتى إذا ظفر بهذه المرتبة على الكمال انتقل إلى العالم العلوى ، وأقام فيه دائما سرمدا فى محبة الملائكة والأرواح الطيبة)

بقى أن نذكر ما قاله إمام المتأخرين أستاذنا وقدوتنا فى أبحاثنا الشيخ محمد عبده رحمه الله فى تفسيره على (جزء عم) عند قوله تعالى فى صفة أهل الجنة (وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية . فى جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية)

ففسر معنى كون الوجوه ناعمة بأنها ذات بهجة وحسن . وفسر معنى كونك لا تسمع فى الجنة لاغية : أى لاتسمع فيها كلاما فاحشا ، ولا قولا باطلا . ثم قال (فنعيم أهل الجنة ينبغى أن يكون نعيم أهل الفضل والجد لانعيم أهل الجهل والحمق ، فاعتبر بهذه الحكمة ثم انظر كيف قدم من الأوصاف للجنة وضروب نعيمها ما هو روحانى يليق بأرباب النفوس العاليـة ، والمقامات الرفيعة فى العرفان وكمال الوجدان ، فذكر الرضى بالسعى ولذته فوق اللذائذ فإنه لا لذة تفوق عند العامل لذة سروره بعمله . ثم أتبعه بالتنزه عن اللغو وما لافائدة فيه وهو أسمى ما يطلب الكامل أن يحيى به)

قال رحمه الله ثم جاء الوحى بعد ذلك (أى بعد وصف اللذائذ الروحانية) بما له شبه باللذائذ الجسمانية المعهودة لنا فى هذه الحياة فقال تعالى :

(فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة . ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة) فبعد أن فسر الشيخ هذه الملذوذات المـادية التى تتمتع بها الحواس الجسدية قال رحمه الله (كل ذلك لتصوير النعمة والرفاهية واللذة وإلا فإن نعيم تلك الدار الآخرة مما لا يشبهه فى هذه الدار نعيم) .

ومنه يفهم أن شيخنا رحمه الله يذهب إلى ما تقرر فى هذه الرسالة وقد قاله هو مدمجا مقموطاً . فروينا نحن مفصلا مبسوطا .

لاجرم أن الملذات التى يأنف من تناولها الربانيون والعقليون فى دنياهم إلى هذا الحد من الأنفة والاشمئزاز ، جدير بأن لا يكون المراد منها — إذا وعدوا بها فى آخرتهم — إلا ملذات علوية ، لائقة بدار الكرامة الإلهية ، فيتلذذ الجسـد بلذات تلائمه ، مما لا يمكن أن يتعقله

البشر بحقيقته إلا إذا صور لهم بصورة ما ألفوه واعتادوه من ملذوذات الدنيا: كالأكل والشرب والملامسة، فكل ما يجب علينا اعتقاده من أمر هذه الملذات الجسدية إذن أمور :

(١) كونها مادية حسية يشعر بها الجسد.

(٢) كونها غير ممكنة التعقل بكنهها وحقيقتها، وإنما تتعقل بواسطة تشبيهها بملذات الدنيا، عن طريق إطلاق أسماء هذه الملذات الدنيوية عليها.

(٣) كونها تبقى مغمورة بالملذات الروحية المعنوية التي يتنعم بهـــا المؤمنون في الجنة مع الملذات الجسدية، فمن شعرت حواسه بلذة جسدية في الجنة، يشعر في الوقت نفسه بلذة روحية، تكاد تتضاءل تلك اللذة الجسدية بجانبها، وهذا كالجائع في دار الدنيا إذا أكب على طعام لذيذ بين يديه، فإنه يلتذ به جسما، أما التذاذه به روحا، فإنه يختلف شدة وضعفاً باختلاف ثقافة الآكل ووزن عقله، ودرجة تربيته. فبعض الآكلين في الدنيا لا يخطر بباله وهو يأكل إلا لذة الازدراد، بينما غيره يُشغل عن لذة الازدراد بلذة روحانية يثيرها في نفسه كبر عقله، وسمو تربيته، وبعد همته. ومثل فرحه بأن هذا الطعام يحييه الحياة الطيبة، ويمنحه جمال الجسم ونشاط النفس، ويقويه على العمل الصالح، ومثل فرحه بالوسائط الشريفة التي يسرت له هذا الطعام وبقدرته على تحصيلها والظفر بها، إلى غير ذلك من الوجدانات الروحية، التي قد يهجس بها الرجل المهذب وهو يأكل

ولا يخفى أن كل المؤمنين والمؤمنات، يكونون في الجنة بشراً أسمى مما كانوا عليه في دار الدنيا من جهة كمال عقولهم، وطهارة أرواحهم، وصفاء جوهر

نفوسهم فلا غرو أن يكون شعورهم بالملذات المادية الممثل لها بالخمر ولحم الطير والحور والولدان ونحوها، شعورا يسمو بالروح إلى أفق الملائكة الأبرار شعوراً مغمور بلذات روحانية أجلها الوحي الإلهي، أو رمز إليها في آية (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) ونضارتها هي بشاشتها وظهور بريق السرور على قسماتها، حينما تنال لذة اللقاء، ولذة الرضى، ولذة المعرفة بانكشاف ماوراء الحجاب، ولذة الطمأنينة إلى حياة جديدة يتنعم بها المؤمن في القرب من خالقه إلى أمد لا يقدّر بالأحقاب. قال أبو يزيد البسطامي « لو أن الله سبحانه وتعالى حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار ».

الرابع

إن المطاعم والمشارب والملامس وحاجات الجسم المختلفة، إنما خلقت في دار الدنيا: لتكون من جهة أسبابا لحفظ هذا النوع البشري وبقائه، فيعمر الأرض إلى المدة التي كتب الله له أن يعيش فيها؛ ولتكون من جهة أخرى أدوية وعلاجات، يتناولها البشر تسكينا لآلام الجوع والعطش والشهوة والتعب والملل التي تعتريهم، وتهدئة للقلق النفسي الدال على الضعف البشري فيهم. لكن تلك الأدوية والعلاجات أصبحت بحكم اعتيادها لذة يتمتع بها الناس وهذا كالسعوط الذي كان يدس في الأنف للاستشفاء، ثم صار أمراً يتلذذ به كما يتلذذ بالفاكهة والحلوى، وحقق بعض الأطباء أن نبات التبغ الذي يشرب اليوم دخانا، إنما كان يستعمل في أول الأمر بصفة علاج تشير به الأطباء في بعض الأمراض، ثم اعتيد حتى أصبح لذة يبذل المال الطائل في

تحصيلها بل تذهب الحياة الغالية أحيانا فى سبيلها . فإذا كانت المطاعم والمشارب وبقية ضرورات الجسد بمنزلة علاجات للبشر كما وصفنا . فهل يليق بالإله الحكيم أن يقدم للأبرار من خلقه — الذين هم ضيوفه فى دار كرامته — تلك الأدوية والمسكنات لتكون بمثابة جوائز ومكافآت على ماقاسوه من ضروب الطاعات والقربات ؟ ألا يكون المنتظر منه تعالى أن يهيء لوفود دار كرامته من وسائل النعيم واللذوى ، وهم فى طور صحتهم وعافيتهم غير ماهيأه لهم ، وهم فى طور مرضهم وعلتهم ، فلا غرو إذن أن تكون ملذات النعيم الموعود بها ملذات كريمة تليق بتلك الدار دار الصحة والسلامة .

لكن الله تعالى تلطفا منه وتكرما ، سمى تلك الملذات بأسماء الأدوية والعلاجات : التى اعتدنا التلذذ بها فى هذه الحياة الدنيا ، مسارعة إلى تفريحنا وتبشيرنا وتقريبا لحقائق علم الغيب من متناول عقولنا : مثال ذلك أن يولد لك ولد ، قد أصيب منذ يوم ولادته بأمراض مختلفة فيعطيه الطبيب لتسكين آلامه علاجات ، ينفر منها طبعه ويستكرهها ، فيحليها الطبيب له بالسكر والعسل ، وبذلك يسيغها ، ويسهل عليه تجرعها . ثم يشب الطفل ويكبر والأمراض ملازمة له حياته . وقد اعتاد تلك العلاجات . واستحلى مذاقها وتراه يمل ويضجر أحيانا من مرضه المزمن الطويل ، فتبشره بأنه سوف ينتقل إلى طور ثان من الصحة والعافية . ثم تريد أن تصف له الملذات التى تنتظره فى ذلك الطور . فماذا تقول له ، وهو لا يعقل من الملذات سوى العلاجات ، التى كان يسكن بها آلامه فى طور علته ؟ لاجرم أنك تضطر أن تمثل له ملذاته المعدة له فى طور صحته ، بتلك العلاجات التى ما زال يتناولها ويستحلي طعامها فى طور علته . وإن تمثيلها له بذلك ليس كذبا ولا خديعة

ولا يفيد أن الملذوذات الموعود بها ليست محسوسة ولا جسمانية ، وكل ما فى الأمر أنك خاطبته بلغته ، وقربت مالا يمكنه أن يتعقله إلى دائرة فكرته ، وحملته بذلك على الإيمان والطاعة وفعل الخير ، وما ترضاه له من الأعمال الصالحة .

الخامس

الفناء والخلود لكل منهما طبيعة

هذا الأمر الخامس متمم أو موضح لبعض ماسبق ذكره فى الأمر الرابع. وذلك بأن يقال : إن الدنيا دار زوال والآخرة دار خلود ، ولكن قضت الحكمة الإلهية فى دار الدنيا ـ مع كونها دار زوال ـ أن يظل نوع الإنسان المتسلط فيها باقيا إلى ميقات زوالها : فالمطاعم والمشارب والمناكح إنما خلقت فى هذه الدنيا تنفيذا لإرادة الله فى بقاء النوع البشرى إلى يومه الموعود ، فهى إذن ضرورية للبشر كى يتوسلوا بها إلى بقائهم أحياء يعمرون هذا الكون . ولو قدر لهم الخلود فى هذه الحياة الدنيا ، لما كانوا فى حاجة إلى طعام ولا إلى شراب ولا إلى وقاع بالطبع : يأكلون ويشربون لئلا يموتوا ، لكنهم لا يموتون ، فلا حاجة إذن إلى أن يأكلوا ولا إلى أن يشربوا ، يتزاوجون لأجل أن يولد لهم أولاد يخلفونهم بعد موتهم فيبقى الكون عامرا بهم إلى يومه المقدور ، فإذا كانوا لا يموتون فلا تكون ثمة حاجة إلى النكاح ولا إلى الذرية : لأن الدنيا معمورة بمن فيها من البشر . والأنبياء والصالحون أنفسهم يعرفون هذا ويعلمون به . ويرشدون إليه : فهم لا يأكلون ولا يشربون لذات الأكل والشرب وللذاتهما ، وإنما للتوسل بهما إلى استمرار هذه الحياة

الدنيا عملا وخضوعا للمشيئة الإلهية ، وهم أيضاً لا يعرفون النساء لما فى هذه المعرفة من اللذة بل لما فيها من ثمرة الولد الذى أرادت العناية الإلهية أن يخلف أباه ويقوم مقامه فى عمارة هذا العالم وبقائه إلى أجله المحدود .

إذن الأكل والشرب والجماع تشبه أن تكون نتائج لعدم خلود هذا الكون لكنها نتائج متقدمة وسابقة عليه ! !

فلو لم يقدر علينا الموت لما قدر لنا أن نأكل ونشرب ونلامس النساء ، كما أنه لولا الموت لما ركز فى نفوسنا ما ركز فيها من أخلاق وطباع وغرائز . وهذا ما أشار اليه المتنبي فى قوله :

(سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها منعنا بها من جيئة وذهوب)
(ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب)

يقول سبقنا الناس قبلنا إلى الوجود فى هذا الكون ، فلو بقوا أحياء من دون موت لما أمكننا نحن الموجودين اليوم أن نجد محلا نعيش فيه أو نقف فيه فى هذه الدنيا ، بل لما كنا نتفاضل بما نتفاضل فيه من المناقب والمحامد كالشجاعة والجود والصبر أى لولا الموت لما كان لهذه الصفات معنى ولا تحقق .

والحاصل أن الموت وعدم الخلود فى هذه الدار الدنيا هو السبب فيما نحن عليه من أحوال وصفات وطباع وأخلاق ، وأنا لم نأكل ونشرب ونواقع فى هذه الدنيا إلا بسبب ما قدره الله من عدم الخلود فيها .

أما الدار الآخرة الخالدة التى قدر لنا فيها الخلود ، أتحسبون أن يجعلنا الله فيها محتاجين إلى طعام وشراب وزواج كما كنا فى حاجة إليها فى الدنيا الفانية؟

بل أتحسبون أن يكون لنا من الطباع والغرائز والأخلاق والأطوار ما كان لنا مثله فى هذه الدار الدنيا ؟

كلا بل لنا فى دار الخلود طعام وشراب ووقاع . وصفات وأخلاق تناسب فى كنهها وحقيقة معناها معنى الخلود الذى نتمتع به ، كما كان لعدم الخلود فى دار الدنيا طعام وشراب ووقاع وصفات وأخلاق وطباع تناسبه ويلتحم معناها بمعناه .

السادس

إن مما اشتملت عليه الجنة من الملذوذات الحور العين اللواتى يتمتع بهن المؤمنون فوق تمتعهم بزوجاتهم الدنيويات وذلك جزاء إيمانهم .

وقد سمعت يوما فاضلا فطنا ـ من غير أبناء ملتنا ـ يسأل شيخا صالحاً من شيوخنا قائلا : مابال المؤمنات لا يتمتعن فى الدار الآخرة بغلمان من الحور العين ، فوق تمتعهن بأزواجهن الآدميين جزاء إيمانهن ، كما يكون شأن المؤمنين مع الحوريات فى تلك الدار ؟ فأجابه الشيخ بكل سذاجة «إن الرجال قوامون عليهن حتى فى الجنة» ولكن هذا الجواب لم يقنع السائل . بل قال له : « أهم قوامون عليهن حتى فى الجنة ؟» فإذا قلنا : إن التمتع بالحور العين الموعود به فى الآخرة ليس أمره على مانعهد فى دار الدنيا ، وإنما هو كناية أو تمثيل لنوع من الملذات الأخروية لا يمكن لنا أن نتعقله بحقيقته ونحن فى هذه الدار إلا بما ضرب الكتاب العزيز له مثلا من الحور العين . فحينئذ لا يتوجه علينا اعتراض ذلك المعترض إذ نقول له : إن هؤلاء الحور عبارة عن ملذة

أخروية بالغة حدها من التأثير فى نفوسنا ، وإن التمتع والتلذذ بلذة الحور العين ليست على النمط والطريقة التى تعرفها فى نساء الدنيا ، فمن ثم يصح أن يتناول تلك اللذة ويشترك فى الشعور بها مجموع المؤمنين والمؤمنات ، الذين أحلهم الله بحابح الجنات .

ومما يحسن إيراده هنا بل مما يصح الاستشهاد به فى مسألتنا ما روى أن أبا العتاهية لما قال فى (عتابة)

(إن المليك رآك أحسن خلقه ورأى جمالك)
(لهذا بقدرة نفسه حور الجنان على مثالك)

شنع عليه منصور بن عمار (البصرى الواعظ والزاهد المشهور) وقال له : أتصور الحور على مثال امرأة آدمية ؟ والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى مثال .

وقال أبو العتاهية فى عتابة أيضاً :

(كان عتابة من حسنها دُمية قسّ فتنت قسّها)
(يارب لو أنسيتنيها بما فى جنة الفردوس لم أنسها)

فشنع عليه منصور أيضاً وقال : إنه يتهاون بالجنة ويتبذل ذكرها فى شعره بمثل هذا التهاون . وكان طعن منصور على أبى العتاهية يشيع بين العامة فيلقى (أى أبو العتاهية) منهم بلاء وشدة مذ يزعم فى شعره أن الحوريات على مثال الآدميات ، ويستهين بنعيم الجنّات ، بمثل تلك التصريحات .

على أن الناس فى عصرنا هذا أصبحوا كأنهم قد تأثروا بقول الزاهد العابد (منصور بن عمار) فى العصر العباسى . فكما كان أهل ذلك العصر

(بتأثير منصور) يستهزئون بما قاله أبو العتاهية من أن معشوقته على مثال حور الجنان ويعدون ذلك منه تهاونا بالجنة ، كذلك الناس اليوم أصبحوا — ولكن بشكل آخر وبمقياس واسع — يستهزئون بكون حور الجنان وولدانها وخمرها وعسلها من جنس ما فى الدنيا وقد عمت السخرية من ذلك بين طبقة خاصة من أبناء العصر ، يتخللها طائفة ليست بقليلة من أبناء الإسلام من ذلك قول السيد جميل صدقى الزهاوى من أرجوزة نشرتها له جريدة (السياسة) المصرية :

أما الجنـــان فإنها مقصـــودة المتبتل
ماشئت من حور وولدان وطيبة مأكل
فى كل ناحية شمردلة لـــكل شمردل
أما الصراط فإنه فوق الجحيم كمنجل
وغراره فى ظهره كشبا الحسام المفصل
أو أنه جسر كقنو النخـــلة المـــتمثكل

وإنا لنرجو أن يكون السيد الزهاوى ومن آمن بكلامه من إخواننا المسلمين ، إنما يسخرون من نعيم وعذاب أخرويين ، يقعان بوسائل وأسباب من مثل أسباب الدنيا نفسها ، لكنهم يؤمنون بنعيم وعذاب على نمط ماشرحناه وبرهنا عليه فى رسالتنا هذه .

فصل

(التسامح واختلاف الأئمة من مزايا الإسلام)

ما قاله الفريق الثالث فى تفسير « ملذات الجنة » وأنها من قبيل التمثيل

ـ ليس بالواجب على كل مسلم اعتقاده والتعويل عليه، فى تفسير تلك الآيات. وتعقل هذه الملذات. وإنما هو قول من أقوال اعتاد الإسلام بسماحته وسعة صدره أن يسمعها، ويغضى عنها فى كثير من عقائده وأحكامه، ما دام المختلفون والمفسرون لم يتخطوا حدود الشرع، ولم ينكروا أصلا مجمعا عليه من أصوله. وقد قال السيد الشريف المرتضى «على المتأول أن يورد كل ما يحتمله الكلام مما لا تدفعه حجة، وأن يرتب بعضه على بعض فى القوة والوضوح» فالبعث جسمانى، والجنة مخلوقة ثابته فى الخارج، وملذاتها حقيقية تحسّ بها المشاعر وإن فيها خمرا وعسلا. وهنا يفترق الفهمان. فقائل يقف على الظاهر، ويذهب إلى أن الخمر والعسل هما السائلان الأحمران المعروفان بخصائصهما الكيماوية، لكنهما من أخر أنواعهما التى ما عهدنا مثلها فى دار الدنيا. وقائل آخر يتنقل ـ بحبل اللغة العربية وأسرار بلاغتها ـ من الظاهر إلى الباطن، ويذهب إلى أن الخمر والعسل ليسا من الوسائل التى تحسى حسوا، وإنما هما مسرتان أو لذتان جسديتان سماهما لنا ربنا ـ لأجل أن نتصورهما بالجملة ـ خمرا وعسلا. وما زال علماء الإسلام ومفسرو القرآن الكريم يأخذ بعضهم بظاهر الآيات والنصوص، ويأخذ بعضهم بباطنها ويعول على السر والحكمة فيها ويقول: إن للقرآن ـ كما ورد ـ ظاهرا وباطنا: فالإمام الشافعى رضى الله عنه يقول: إن المراد من الملامسة فى قوله تعالى (أو لامستم النساء) مس البشرة. وقال إمامنا أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ إنها كناية عن غشيانهن ومن أمثلة ظاهر اللفظ وباطنه قوله تعالى فى الوصية بالوالدين (ولا تقل لهما أف) ظاهره النهى عن قول (أف) وليست (أف) سوى مثال يشار به إلى باطن، وهو

النهى عن كل إيذاء يقع من الولد فى جانب والديه، ويمكن أن يعد من هذا القبيل آيتا (كالذى يتخبطه الشيطان من المس) (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) فالعالم الحشوى يستنبط من الآيتين أن للشياطين رؤوسا منكرة بشعة، وأنهم يدخلون فى أجسام المرضى فيتلتلونهم ويجعلونهم يضطربون ويلتبطون، أما العالم المتفقه فى أسرار بلاغة القرآن فيحمل الآيتين المذكورتين ونظائرهما على مجاراة الوحى الإلهى للعرب فى مزاعمهم وأوهامهم كما جاراهم امرؤ القيس فى قوله :

(أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال)

والمعروف من امرىء القيس أنه ما كان يعتقد بالغيلان ، وأن لها أنيابا كأنياب الكلاب .

ومسائل الخلاف بين علمائنا وأئمتنا كثيرة لا تحصى، ومنها ماهو متعلق بالأصول والعقائد لكنه والحمد لله اختلاف لا يخرج به المختلفون عن الملة ولا يعطلون أصلا من أصول الإسلام كما قلنا . والاختلاف على هذه الصورة نافع ومفيد فى طمأنينة نفوس المؤمنين وراحة ضمائرهم ، ولاسيما وهم مختلفون فى الأدوار والأطوار ، والعقول والأفكار، ومن ثم قالوا . (اختلاف الأئمة رحمة) إذ يأخذ كل مؤمن من أقوالهم مايرتاح إليه ضميره و يعتقده حقاً .

فصل

وما ذكرناه من تأويل آيات النعيم الأخروى وجعله من قبيل التمثيل — لم يكن بدعا من أقوال العلماء ، ولا بالذى فاتهم البحث فيه . وهكذا شأنهم أيضا فى الآيات المتعلقة بعالم الغيب كالميزان والصراط . فكان الكثيرون منهم يذهبون إلى أن معظم تلك الآيات من باب التمثيل والتقريب ، وليس المراد به ظاهره وحقيقته . وهناك آخرون ذهبوا إلى اعتقاد ظاهره وأن

هذا الظاهر ينطق بالحقيقة المجردة عن التمثيل والتقريب : فهما قولان يشبهان مذهبي السلف والخلف فى الآيات المتشابهة بعضهم يؤمن بظاهرها وبعضهم يؤولها

وإذا كان لابد من الاستشهاد بقول إمام كبير على أن ملذات الآخرة مغايرة لملذات الدنيا بالكنه ، ومشابهة لها بالاسم ، فهاك ما قاله الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه ـ المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ـ بمناسبة قصور إفهام البشر عن الإحاطة بحقيقة معرفة ذات الله تعالى وصفاته ، وأن الحق فى ذلك ما قاله الإمام الجنيد (لا يعرف الله إلا الله) ـ قال الغزالى ما نصه : (لا يعرف أحد حقيقة الموت والجنة والنار إلا بعد الموت ودخول الجنة والنار . لأن الجنة عبارة عن أسباب ملذة ، ولو فرضنا شخصا لم يدرك قط لذة ، لم يمكننا أصلا أن نفهمه الجنة تفهيما يرغبه فيها ، وكذلك إذا أدرك شيئا من اللذات فغايتنا أن نفهمه الجنة بأعظم ما ناله من تلك اللذات ، فإن كان فى الجنة لذة مخالفة لهذه اللذات فلا سبيل إلى أصلا إلا بالتشبيه بهذه اللذات المخالفة لها ، كما ذكرناه فى تشبيه لذة الوقاع بحلاوة السكر متى طالبنا الصغير ومن لا يشتهى النكاح أن نعرفه ذلك ، بل العبارة الصحيحة عن الجنة أنها « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » اهـ ومثل قول الغزالى ، قول منصور بن عمار السابق ، مذ سمع أبا العتاهية يقول فى شعره (إن المليك ـ البيتين ـ فشنع عليه قائلا : أتصور الحور على مثال امرأة آدمية ؟ فكان منصور يقول : إن الحور لسن على مثال الآدميات وإنما يشاركنهن بالاسم ولا مشابهة بين المسميات . وفى قول هذين الإمامين بلاغ ليس بعده لإنكار ما قلنا مساغ .

فصل

وقد كان السلف الصالح فى صدر الإسلام يتجادلون ويتناظرون فى فهم النصوص الدينية، وكل منهم يذهب إلى مافهمه من دون أن يعيبه صاحبه به أو ينعيه عليه ، أو يحاول إرجاعه عنه . ومن أجل ما روى فى هذه الباب أن عمار بن ياسر الصحابى الجليل - رضى الله عنه - قال قولا فى التيمم واستشهد عليه بحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقبله منه سيدنا عمر . ولم يتابعه عليه ، ولم يكلفه أن يرجع عنه . وإنما اكتفى بقوله له (نوليك ماتوليت) أى نسلم لك ما رضيته لنفسك واستخرت الله فيه ، ولا نتابعك عليه مادمنا غير مقتنعين بصحته . فخذا هذا الأدب الكريم من آداب الصحابة رضوان الله عليهم ، ولاريب أنه تعليم إلهى فاض عليهم معينه من ينبوع الكمال الأعظم صلى الله عليه وسلم

وشكوت إلى السيد جمال الدين الأفغانى[1] يوما ما يقع من بعض العلماء المعاصرين من تكفير بعضهم بعضا، وقلت له : لعل الذى جرأهم على هذا ما يرونه فى كتب الكلام والخلاف ونشوء الفرق من مثل ذلك . فقال رحمه الله: إن علماءنا السابقين ما كانوا يفعلون ذلك، وإن ما يذهبون إليه أحيانا من الأقوال التى ظاهرها الكفر أو التكفير لا يقولونه ليكون عقيدة تقرر أو حقيقة تسطر ، وإنما القصد من ذكرها إظهار المقدرة فى الجدل والحجاج وفنون المناظرة وهم كلهم ، رضى الله عنهم ، على عقيدة إسلامية صحيحة ناجون بها إن شاء الله . فسرنى قوله جداً وازددت سرورا، مذ سمعت

(١) وقت لقياى إياه فى الاستانة سنة ١٣١٠ هـ ١٨٩٢ م

مثل هذا القول من السيد محمد بن جعفر الكتانى الفاسى نزيل دمشق فقد سئل يوما عن قول منسوب للشيخ محيى الدين بن عربى ـ رضى الله عنه ـ مخالف بظاهره لما تقرر فى عقائد الإسلام فقال السيد الكتانى : إن للشيخ الأكبر فى هذه المسألة قولا هو نفس قول الجمهور لكنه ـ رضى الله عنه ـ فى قوله الآخر المنسوب إليه أراد إظهار المقدرة فى المناظرة والجدل، وإيراد الحجج والبراهين على هذا القول كأنه يقول يمكن أن يقول الذاهبون إليه كذا ،ويمكن أن يحتجوا له بمثل كذا أما هو (أى الشيخ الأكبر) فلا يعتقده ولا يجزم بصحته اه . وهذه هى الطريقة الحميدة التى بها يمكننا أن نحسن الظن بعلمائنا السالفين ونتحمل الشذوذ فى القول أو الرأى أحيانا من علمائنا المعاصرين

فصل

ولم تخل ملة سماوية من هذا الاختلاف بين أبنائها فى فهم نصوص دينها قديما وحديثا . وهناك شواهد ونموذجات كثيرة مما جرى بين علماء اليهود والنصارى، بشأن فهم النصوص الدينية أضربنا عنها خشية التطويل والخروج عن الصدد . ومن الغريب أن كثيرا من مسائل هذا الخلاف بينهم يشبه ماكان يقع بين أئمة الإسلام وفحول علمائه ، ولنضرب لذلك مثلا (أوريجانس) العالم المؤلف المسيحى الكبير ، رئيس مدرسة الإسكندرية وكانت وفاته فى مدينة صور سنة (٢٥٥) للمسيح عليه السلام . وقد كان فى أيامه لفلاسفة العرب فى بتره (وادى موسى) وبصرى (حوران) آراء جمة فى علوم ما وراء الطبيعة ، من ذلك أنهم كانوا ينكرون خلود النفس فذهب (أوريجانس) إلى بلادهم ، وعقد مجمعا فيها وناظرهم وألزمهم القول

بخلود النفس ، لكنه هو إن أثبت خلود النفس، فقد أنكر قيامة الأجساد وذهب فوق ذلك إلى أن العذاب الذى يقع على النفس الفاجرة موقت محدود المدة ليس خالدا ولا سرمديا . ومن ثم ضلله جمهور علماء النصرانية وعدوه مبتدعا .[1] ومن تأمل فيما نقلناه عن (أوريجانس) عجب من مقدرة التاريخ على إعادة نفسه ومن كون طرائق الخلاف وتباين الآراء بين علماء الأديان السماوية متشابهة تمام التشابه .

وقد سمعت يوما فاضلين من أبناء إسرائيل يتناظران فى (نشيد الأنشاد) المنسوب إلى سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام ، وفيه أوصاف شعرية صريحة اللهجة فى محاسن فتاة محبوبة ، صورت فيها تلك المحاسن بأفصح تصوير وأبلغ تأثير : فقال أحد الفاضلين : إن المراد بهذا القول وصف محاسن الحكمة والفضيلة . فأجابه الآخر : كلا وإنما المراد به وصف محاسن المحظية الجميلة . وقال علماء أهل الكتاب فى وصف صعوبة فهم أحوال عالم الغيب (إنه قد يكون فى الفردوس أمور فوق أفكار البشر بحيث لا توجد لغة قادرة على أن تعبر عنها . وإذا كنا نحن معشر البشر فى دنيانا هذه لا يمكننا التعبير عن أفكارنا العادية حينما تكون حاسياتنا شديدة الانفعال فكم بالحرى إذا كان موضوع الكلام حقائق العالم الأزلى ووصف الأرواح المجردة عن المادة وذكر مختلف أطوارها) .

فصل

وحشر الأجساد أو قيامة الأجساد من جملة عقائد الديانة المسيحية التى

---

(١) أخبار أوريجانس هذه لخصناها من ترجمة حياته فى (تاريخ سوريا) للعلامة المطران يوسف الدبس .

يضلل جاحدها فى إنجيل يوحنا (فإنه تأتى ساعة فيها يسمع جميع الذين فى القبور صوته (أى صوت ابن الله وهو المسيح) فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة ، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة) راجع الإصحاح الخامس وفى سفر أيوب (١٩ : ٢٥ — ٢٧) مانصه : (إنى لعالم أن فادىّ حى ، وسيقوم آخرا على التراب . وبعد ذلك تلبس هذه الأعضاء بجلدى ، ومن جسدى أعاين الله الذى أنا أعاينه بنفسى ، وعيناى تريانه لاغيرى اه)

وفى العقيدة التى قررها أول مجمع مسكونى تحت رئاسة اسكندروس بطريرك الإسكندرية النص على حشر الأجساد ، إذ قيل فيه : (وصعد المسيح إلى السماء وجلس على يمين أبيه وهو مستعد للمجىء تارة أخرى للقضاء بين الأحياء والأموات) وقيل فى آخرها : نؤمن بكذا وكذا وبقيام أبداننا بالحياة الدائمة أبد الآبدين .

وجاء فى مجلة (المسرة) الكاثوليكية جزء (٤) سنة (٨) الصادر سنة (١٩٢٢) م جوابا على سؤال بشأن حشر الأجساد [1] مانصه : (إن قيامة الأجساد عقيدة من عقائد الإيمان ، وعلى كل مسيحى أن يؤمن بها وقد حددها المجمع اللاترانى الرابع سنة (١٢١٥) م وعليه فإن أجساد الأبرار تأخذ نصيبها من نعيم السماء ، كما تأخذ أجساد الأشرار نصيبها من عذابات جهنم . هذا هو التعليم الصحيح المبنى على أنوار النقل والعقل معاً اه)

وفى إنجيل لوقا (٢٢ : ٢٩) إن المسيح قال لتلاميذه فى العشاء السرى (أنا أعدّ لكم الملكوت كما أعدّه لى أبى لتأكلوا وتشربوا على مائدتى فى

(١) راجع مقالا عن قيامة الأجساد فى مجلة المشرق جزء (٩) سنة (١٩٠٦) م : ق ٣٢٧ ، ٣٤٦

ملكوتى وتجلسوا على كراسى تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر اه)

وكتب (المطران [1] جرامانوس فرحات) فى معجمه اللغوى (أحكام باب الإعراب — عن لغة الأعراب) (ص ٤٩٧) حيث ورد فى حق جهنم ما نصه (جهنم مغارة مظلمة فى قلب الأرض مملوءة نارا وكبريتا تسكنها الشياطين والكفار والخطأة . طولها مئتا ميل وكذلك عرضها وعلوها بينها وبين وجه الأرض ثلاثة آلاف ميل والداخل إليها لا يخرج منها إلى الأبد وخلاف ذلك بدعة اه)

وقال المسيح لتلامذته حين شرب معهم : إنى لست شاربا من ابنة هذه الكرمة حتى أشربها معكم تارة أخرى فى ملكوت السماوات . وقال يوحنا عن المسيح : ما أكثر الغرف والمساكن عند أبى .

واطلعت أخيراً على رسالة فى (علم النفس الإنسانية) طبعت حديثا فى مطبعة السريان بالقدس، وهى من تصنيف العلامة أبى الفرج بن العبرى «حجة علماء الشرق المسيحى بلا منازع » وقد قال فيها (ص ٦٦ — ٦٧) مانصه (إن جميع علماء البيعة اتفقوا على أن النفس متى حصل لها الانتقال عن البدن تقصدها الملائكة والأبالسة ولأى جهة استحقت رفعوها إليها إلى حين القيامة الكلية تعود إلى البدن الذى انفصلت عنه ، إما للنعيم المقيم أو للعذاب الدائم اه) أقول والبدن الذى تعود إليه النفس الإنسانية يوم القيامة يبعد أن يكون مفلوجا فاقد الحواس التى هى أداة الشعور باللذة والألم ولو كان فاقد الحواس ، لما كان بدنا بل لما كانت ثمة حاجة لأن يخلق ثانية فتكون النتيجة أن نعيم الجنة روحانى، وللجسد المادى نصيب منه، وقد استعار الوحى الإلهى للنعيم المادى الأخروى أسماء النعيم المادى الدنيوى لأجل أن تتصوره عقول البشر فى الجملة

(١) اسقف حلب مات (١١٤٥) ه

خاتمة

ثم أن ما قلناه فى (ملذات الجنة) وما جاء بشأنها من الآيات فى القرآن هل هو حقيقة أو تمثيل، يقال فى (عذاب جهنم) وأسباب الشقاء فيها، وهل المراد بها حقيقتها كما يستفاد من ظاهرها، أو هو تمثيل لآلام جسمية نفسية شديدة مختلفة فى أحوالها وأطوارها، صورها لنا الوحى فى صورة ما ألفناه واعتدناه فى دنيانا هذه من وسائل العذاب وأسباب الشعور به، وأن النار والبطون فى آية (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا) هما كالنار والبطون فى آية (قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم. يصهر به ما فى بطونهم والجلود) هما فى الآيتين مضروبان على غرار واحد من حيث التجوز والتصوير والتمثيل. ويحسن أن يقدم ويؤخر فى إيراد الآيتين فيقال: إن النار والبطون فى آية قطعت لهم ثياب الخ هما فى التجوز والتمثيل كالنار فى البطون فى آية (إن الذين يأكلون الخ. وقد اطلع بعض الفضلاء على رسالتنا هذه بعد الفراغ منها فراقه البحث فيها، غير أنه تمنى لو تجعل أقوال الفرق الثلاث قولين ذهاباً منه إلى أن قول الفريق الثانى، وهم السادة الصوفية لا يخرج فى حقيقته عن قول الفريق الثالث فهو هو أو قريب منه.

فقلت له: يفهم من بعض عبارات السادة الصوفية، أن الجسمانية فى النشأة الثانية تفنى فى الروحانية فيكون الظهور للروح دون الجسد، وبذلك يصبح نعيم الجنة كأنه روحانى محض. أما الفريق الثالث فيقولون بأن الروحانية مهما اشتدت فى الدار الآخرة فإن الجسمانية لا تفنى فيها ويبقى الجسد متمتعا

بكل وظائفه ومشاعره المعهودة فى دار الدنيا ، لكن على نمط يلائم أحوال النشاة الثانية كما فصلنا على أن هناك فرقا آخر بين القولين : وذلك أن السادة الصوفية يعوّلون فيما ذهبوا إليه من أمر ملذات الآخرة على المذاويق والمواجيد وضروب المكاشفات . أما الفريق الثالث فلا يُعوّلون فيما ذهبوا إليه على هذا المعنى، وإنما كل اعتمادهم على اللغة العربية وأساليب بلاغاتها وما يتنافس به فصحاء العرب من بديع استعاراتها وكناياتها .

ومهما اختلفت عباراتنا ـ معشر المسلمين ـ فى حقيقة أمر العذاب والنعيم الأخرويين ، فلن تختلف والحمد لله عقيدتنا فيهما ، وفى صدق الوعد الإلهى بهما وبوقوعهما بعد الموت .

هذا ونسأل الله أن يرحم ضعفنا ، ويعفو عن سيئاتنا ، ويختم بالصالحات أعمالنا ، ويحشرنا مع زمرة أوليائه المقربين ، ويقبل فينا شفاعة سيد المرسلين عليه من الله الصلاة والتسليم .

يقول مؤلف هذه الرسالة فرغت من تأليفها يوم الجمعة الواقع فى ١٦ محرم سنة ١٣٣٨ الموافق (١٩٢٠) م فى دمشق الشام وأنا بها نزيل .

القرآن فى مصر

بقدر ما يعجب المرء من كثرة حفظة القرآن فى المسلمين ، وإجادة الكثيرين منهم فى حسن الأداء والصوت — يعجب من عدم احترامهم للقرآن الاحترام اللائق به . نعم لا ينكر ولوع المسلمين بسماع تلاوة القرآن وإعجابهم بمن يجيد تلاوته ويحسن تلحينه ، لكن احترام القرآن شىء والطرب لحسن تلاوته شىء آخر ، بل لو قال قائل : إن اقتصار المسلمين على جعل القرآن وتلاوته وسيلة لطربهم وتلذذهم وعدم الانتفاع منه بسوى ذلك ، وسوى تعيّش كثير من قرائه به فى المآتم والقرافات والشوارع — هو إثم وإضاعة — لما كان ذلك القائل فى ظنى مخطئاً ولا أراه مقصراً فى نصحه لإخوانه المسلمين .

كتاب إلهى أرسلته إلينا العناية الأزلية ، لكى نهتدى بهديه وننتفع بما تضمنه من قواعد الاجتماع وأصول العمران ، ونتخذه نوراً نمشى على أثره فى ظلمات هذه الحيـــاة إلى نيل السعادتين الدنيوية والأخروية ، أيصح منا أن نعرض عن العمل بمضمونه ، ونهمل الاستفادة من أصوله وقواعده ، ونكتفى عن كل ذلك باتخاذه ذريعة للطرب والكسب ؟

كيف يكون حنَق الأب الحريص على تربية ابنه ، إذا لقنه كلمات من الأدب والحكمة كقوله أطع أباك وأكرم أمك ، كى يأخذ نفسه بها ويتدرب على مزاولتها ، فرفع الولد عقيرته ، وجعل يتغنى بها ويمطط كلماتها ، ويتقعر فى

(١) كتبت سنة ١٩٠٦ م

اللوم والإنكار، بل التفسيق والإكفار . على أن الأمة الآن فى حيرة من تلافى كثير من جزئيات الأمور ، فكيف يكون حالها لو تصدت لبت الرأى فى مسئلة يصح أن تسمى مسئلة الدين والسياسة معاً ؟ فلنسرع إذن بالعود إلى ما كنا بصدده من بيان أن القرآن الكريم فى مصر، لم ينل المنزلة اللائقة به من حيث أنه كتاب مقدس، وإن نالها من حيث أنه وسيلة للطرب والسرور.

اعتاد الوجهاء فى مصر ـ ونعمت العادة هى ـ أن يعينوا قارئا يتلو القرآن فى منازلهم زُلَفاً من الليل، فيجهر بالقرآن ويتوخى الإجادة فى التلحين ماشاء وشاءت مهارته، وقد تصل إلى أسماع السمر من تلك الآيات آية حكمة أو موعظة، أو مافيه إرشاد إلى شأن عام يتعلق بمصلحتهم واجتماعهم، فيتدبرون معنى هذه الآية، ويبدى كل منهم رأيه فى مايفهمه منها، ويحسبه مفيداً فى إصلاح المسلمين وخيرهم ، كذا نحن نقول فى فائدة هذه العادة عادة تلاوة القرآن فى منازل الأعيان فى شهر رمضان، كما أن لنا ولغيرنا أن يقول: إن فى تلاوته من البركة والخير لأهل المنزل وساكنيه مايعمهم فى هذا الشهر والسنة كلها .

حقاً أن من يمشى فى حارات القاهرة ليلاً ، حيث منازل الوجهاء والأعيان، تهتز نفسه وتنتعش حواسه عند مايسمع أصوات القراء تتجاوب فى الفضاء هنا وهناك ، فتُلقى هذه الحالة على أحياء المدينة فى هذا الشهر المبارك مسحة دينية، وتُعطى سكانها نشأة روحية، تحسدهم عليها سائر البلاد الإسلامية . غير أنا نود لذاك الذى يقرأ القرآن مكاناً أشرف من المكان الذى خُصص له عادة، بحيث يكون بعيداً عن جلبة الخدم وضوضائهم ، بعيداً عن موضع إعداد التبغ والقهوة وعن قذارة أدواتهما وانبعاث روائحهما ومهما يكن فإن الخطب فى هذا سهل بالنسبة لقراء المآتم ، الذين يحشرون هم

اللوم والإنكار، بل التفسيق والإكفار . على أن الأمة الآن فى حيرة من تلافى كثير من جزئيات الأمور ، فكيف يكون حالها لو تصدت لبتّ الرأى فى مسئلة يصح أن تسمى مسئلة الدين والسياسة معاً ؟ فلنسرع إذن بالعود إلى ما كنا بصدده من بيان أن القرآن الكريم فى مصر، لم ينل المنزلة اللائقة به من حيث أنه كتاب مقدس، وإن نالها من حيث أنه وسيلة للطرب والسرور.

اعتاد الوجهاء فى مصر ـ ونعمت العادة هى ـ أن يعيّنوا قارئا يتلو القرآن فى منازلهم زُلَفاً من الليل، فيجهر بالقرآن ويتوخى الإجادة فى التلحين ماشاء وشاءت مهارته، وقد تصل إلى أسماع السَمَر من تلك الآيات آية حكمة أو موعظة، أومافيه إرشاد إلى شأن عام يتعلق بمصلحتهم واجتماعهم، فيتدبرون معنى هذه الآية، ويبدى كل منهم رأيه فى مايفهمه منها، ويحسبه مفيداً فى إصلاح المسلمين وخيرهم ، كذا نحن نقول فى فائدة هذه العادة عادة تلاوة القرآن فى منازل الأعيان فى شهر رمضان، كما أن لنا ولغيرنا أن يقول: إن فى تلاوته من البركة والخير لأهل المنزل وساكنيه مايعمهم فى هذا الشهر والسنة كلها .

حقاً أن من يمشى فى حارات القاهرة ليلاً ، حيث منازل الوجهاء والأعيان، تهتز نفسه وتنتعش حواسه عند مايسمع أصوات القرّاء تتجاوب فى الفضاء هنا وهناك ، فتُلقى هذه الحالة على أحياء المدينة فى هذا الشهر المبارك مسحة دينية، وتُعطى سكانها نشأة روحية، تحسدهم عليها سائر البلاد الإسلامية . غير أنا نود لذاك الذى يقرأ القرآن مكاناً أشرف من المكان الذى خُصص له عادة، بحيث يكون بعيداً عن جَلَبة الخَدَم وضوضائهم ، بعيداً عن موضع إعداد التبغ والقهوة وعن قذارة أدواتهما وانبعاث روائحهما ومهما يكن فإن الخطب فى هذا سهل بالنسبة لقرّاء المآتم ، الذين يحشرون هم

والمعزُّون إلى أزقة قذرة ومآزق عفنة ، تعترض سير المارين إلى بيوتهم ومحالّ أشغالهم ولا يمرّ أحد ـ من أيّ طائفة كانت ـ من دون أن يقف ويتأمل فى هذا المأتم والمجتمعين فيه، ويفكرّ فيما يريدون من هذا الاجتماع .

وقد رأيت مرةً رومياً أو طليانياً يدخن ويداه فى جيبيه ، وهو يقلب نظره فى أولئك المعزّين الذين حشروا إلى زقاق بالقرب من حانوته أوحانته، والقارىء يتلو عليهم وهم يحركون رؤوسهم، وأيديهم ويميل بعضهم على بعض — فكانت أمارات العجب والحيرة بادية على وجه الرومى : يريد أن يحكم بأن القوم فى مأتم فيرى الحاضرين طربين صارخين، كأنهم فى عرس، ولا يمكنه أن يحكم بأنهم فى عرس ، لأن الفقهاء يقرءون كتابهم المقدّس عن روح الميت الذى رأى جنازته بالأمس مرت أمام حانوته . كان الرومى يفكر فيهم وكنتُ أنا أفكر فيه . وكان بجانبي آخر وطنى حسن الشارة يفكر فىّ فالتفتُ إليه وماشيته، وجعلت أشرح له ألمى وأسفى، مما كنت أرى فى المأتم وفى الرومى . فقال لى بعد إصغاءٍ طويل: إن من العبث إصلاح أحوال العامة وتغيير عاداتهم القبيحة ، إذ ليس الأمر فى ذلك منوطا بنا . وإنما هو من وظائف (قُطْب البلد) فقلت : نِعم الرأىُ رأيك ، ثم أفلتّ من بين يديه سليما معافى والحمد لله .

فقراءة القرآن فى المأتم فى أزقة كهذه ، لا أراها تنطبق على أدب الدين وليست من احترام القرآن الكريم فى شيءٍ والأنكى من هذا ، بل من أعجب ما يلفت نظر الغريب فى مصر ، أولئك العامة الذين يستأجرون القُرّاء للتلاوة فى حوانيتهم ، وإلى الآن لم أفهم الغرض الصحيح من ذلك سوى ما فهمته بالقرينة من أنهم يتبرّكون بالتلاوة فتغزر أرباحهم أو يُهدونها

إلى أمواتهم فتتنعم أرواحهم . كيف لا تنفعل النفس ، وتتقطع أسفاً عندما يرى المسلم القارىء أوالقارئة الحسنة الصوت، تتلو كلامَ الله وسُوَرَ الوحى فى دكان قذرة خبيثة الرائحة، حيث تُقلى الطعمية وتحضّر موادها المتنوعة ؟ وربما كان ذلك الطعام هو المراد بقوله تعالى « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » ذلك أن الإسرائيليين تمنوا البقل والقثّاء والفوم والعدس والبصل ، ويبعد أن تكون كل مادة من هذه المواد مما يأكلونه على حدته فهى إذن مواد يؤلف منها طعام واحد . ولا جرم أن يكون ذلك الطعام هو الطعمية، فالطعمية إذن طعام قديم معروف عند قدماء المصريين، لكنه مع هذا من أدنى الأطعمة وأخبثها فيحسن بنا إذن أن ننزه كلام الله عن تلاوته بجانبها .

دع هذا واسمع منى ماهو أعجب، مما أذكره لك مجرّداً عن كلمات العَجَب والأسف فأدعك تستسخل وتقول، إن كنتَ ممن يعقل : ترى القارىء فى القهاوى يتلو الكلام السماوى ، وحوله المدخنون واللاعبون بالملاهى ، من مثل: النرد والطاولة وورق اللعب ، وكثيراً ما يكون مقعده خلف ظهورهم وليس بينهم من يقبل عليه ، أو يصغى إليه .

لو عرفها لعرف [1]

ضروب الكسب وأنواع المتاجر كثيرة ، ومن أفضلها بيع الكتب وطبعها ، فإن هذا الضرب من الكسب لا يعطى صاحبه إذا وُفِّقَ فيه ثروة ومالا فقط - بل يذخر له إذا حسنت نيته مثوبةً وأجراً أيضا . وفى القاهرة اليوم نفر من هؤلاء الذين يسعون وراء البحث عن الكتب القديمة ، والأسفار النفيسة ، فيصحّحونها ويطبعونها ويبتغون الربح من ورائها .

ومنذ أيام زارنى واحد من هؤلاء ، وكلفنى أن أذهب معه إلى بعض (الكتبيّات) القديمة : فقد بلغه أن فيها كتابا قديما مخطوطا لم يطبع بعد ، وقد أكد له الخبيرون أن فى طبعه رواجا وفائدة له وللناس : من حيث إن موضوعه دينى أدبى عمرانى اجتماعى ، وما أحوج أمتنا إلى كتاب من مثل هذا الموضوع . ذهبنا إلى حيث كان الكتاب وطلبناه من القيّم على (الكتبية) فإذا هو مجلد معتدل الحجم حسن الخط ، دفتاه من خشب أمسكتا بقِدّة من جلد أبلتها الليالى والأيام ، وورقه متين مصقول ، غير أنه متآكل من كثرة ما عاث فيه العث ، وأفسدت حشرات الأرض

ولم يمكننا أن نعرف اسم المؤلف ، ولكن فى أى عصر كان لكن غَلَبَ على ظننا أنه يرتقى إلى القرن الخامس من الهجرة أو أبعد من ذلك . ثم كلفنى صديقى أن أقرأ له فصلا من ذلك الكتاب ، ليتبين منزلته ويتحقق فائدته

---

(١) كتبت سنة ١٩٠٧ م

فلم أتردد فى اختيار الفصل وانتقاء البحث ، لئلا يطول التردد . ويكثر التقليب والتصفح ، بل قرأت للفصل الذى وقعت عليه العين لأول الأمر

* * *

هذا الفصل يبلغ زهاء ثمانى صفحات وقد افتتحه صاحبه بتنبيه القارىء إلى ماتضمنه ذلك الفصل من الآداب والتعاليم المهذبة لنفسه والمرقية لروحه: من ذلك التشديد بالعقاب ، وضرورة إقامة الحد على الذين يلتهكون الحرمات، ويتعدّون حدود الفضيلة : فإن البلد إذ خلا من وازع — يهدد المستهترين والفساق ، ويكبح من جماح نفوسهم — توغلوا فى الإثم ، وتمادوا فى ارتكاب الفجور . وفى هذا من انتشار الأمراض وتراخى عرى العائلات مالا يخفى على الفطن اللبيب .

وبعد ذلك أفاض الكتاب فى حرمة لمز الأعراض ، والتعرض للمحصنات . وأن فى عقاب هؤلاء ما يردع أمثالهم ، ويُلقى الطمأنينة فى نفوس الأزواج ، والسكينة بين العائلات . ثم وبّخ الذين يستسهلون هذا الأمر . وعلّمهم الأدب فى مثل هذه المواطن

وحذرهم من الشيطان واتباعه، فإنهم إذا اتبعوه وتلمّسوا ما يزينه لهم ، لايجدون سوى الفواحش ، ولا يقعون إلا على القبائح والآثام

وإن العاقل من شغله عمل الخير وصنع المبرات ، عن التعرض لمالا يعنيه أو يضره من هذه المخزيات . ثم علمنا الكتاب من آداب المعاشرة : أن لا تدخل منزلا لأحد من دون أن تستأذنه . وإذا لم يأذن ما كان لنا أن نمتعض أو نجد فى نفوسنا غضاضة . فإنه لاغضاضة فى حسن الأدب

ولا خسار . ثم أمر النساء والرجال بغضّ البصر وترك النظرات الخائنة . وأن يدعُوا كل مافيه تذرّع إلى فاحشة أو منكر ، فلا تتبرج النساء ولا يبدين من أجسامهن ومعاريهن ما يحمل الرجال على التطلع إليهن ، والاشتغال بهن . وأن على مجموع الأمة أن ييسروا أمر الزواج ويمهدوا سبله أمام أهل العزوبة الفقراء : فإن هذا مما يبعث على العفة والصيانة وكثرة النسل وتقليل الفجور والعهر والأمراض الناشئة عنها . ثم ذكر شيئا من جلال الله وعظمته. وأن على المرء أن لاتشغله دنياه عن مراقبة ذلك الجلال والخشوع لتلك العظمة : فإن هذه المراقبة تزيده تمسكا بالفضائل، وتحجز بينه وبين الرذائل وإتيان الموبقات . أما الغافل اللاهى القلب عن مراقبة خالقه ، فلا تسل عن تورطه فى المنكرات ، وسبحه من غوايته فى غمرات

ثم عَجّبَ لأولئك المستهترين الغافلين: كيف لا يلفتهم صنع الأكوان . وبديع شئونها إلى بارئها وموجدها :

الطير يحمله الهواء ، وفى الهواء نفسه تتكون السحب فينهمر منها المطر ، ويتساقط البَرَد ، وتتهاوى سيوف البروق . وهذان الليل والنهار اللذان يتعاقبان عليك !!! وما هذه الحيوانات المختلفة الأشكال المتعددة الأنواع ؟ أفبعد كل هذا جحود وإنكار ؟ ثم قرّر أن الأمة فى مجموعها لا تنهض من كبوتها، مالم تعمل بأصول دينها بما فيه صلاحها وسعادتها، وأن بقاءها فى الأرض متوقف على قدر عنايتها بأمر تلك الأصول الدينية ، ومراعاتها لها فى شؤونها الدنيوية فإذا قصّرت فى مراعاة تلك الأصول لاتلومنّ إلا نفسها . ومن تلك الأصول الزكاة التى تحفظ الموازنة بين آحاد الأمة فلا يضطربون ، ولا يحقد بعضهم على بعض، ولا يستأثر أفرادمنهم بخيرات الأرض مع أنها أمهم جميعا. وأن

أولئك الذين يعملون العمل بأصول الدين ، ويخرقون نظام الاجتماع ، لابد أن تصيبهم داهية تدمّرهم ، أو تؤدى إلى أن يتسلط عليهم غيرهم .

ثم أتى المؤلف على ذكر شيء من آداب الأطفال قبل البلوغ وبعده مما فيه تحديد لأعمالهم وبيان لواجباتهم . ومثل ذلك النساء والعميان والعرجان والمرضى ، فإن لكل هؤلاء آدابا خاصة يلزمهم مراعاتها فى بيوتهم ، ومع ذويهم .

ثم تأتى بعد ذلك عظة للمسلمين عامة : موضوعها التزام أمر الشارع . وعدم مخالفته فى شيء . وأن فى ذلك الخير والسعادة .

* * *

ليس هذا كل الفصل الذى تلوته فى ذلك الكتاب . وإنما هى نموذجات منه وإشارات إلى موضوعاته وأبحاثه .

وقد تهلل وجه تاجر الكتب فرحا وسروراً ، وقال : هذه هى الضالّة التى ننشدها نحن معشر باعة الكتب . على أن الفضلاء والمتأدبين ليسوا بأقل تشوفا إلى مثل ذلك الكتاب : فإن هذا الفصل وحده الذى قرأته لى منه لم يدع أصلا نافعاً ولا حاجة من حاجات الأمة فى مجموعها وأفرادها إلا أتى عليه تصريحا أو تلويحا . ولا أرى إحياء الغزالى ولا مقدمة ابن خلدون ، بأنفع من هذا الكتاب ، ولا بأروج منه إذا نشر بين المسلمين والمشترين ، فهو فى الفصل الواحد لا يلتزم موضوعاً خاصاً ، أو بحثاً فذّا ، بل ينتقل من واحد إلى آخر . فلا يجد المطالع فيه سآمة ولا ضجراً .

ثم قال التاجر : وكيف رأيك فى الإعلان عن هذا الكتاب فى الجرائد؟

وبماذا نسمّى موضوعه ؟ هل هو الدين ؟ أو الأخلاق ؟ أو نظام الاجتماع ؟ أو الآداب الشخصية ؟ أو آداب المعاشرة العامة ؟ ثم أخذ الكتاب وجعل يتصفحه ويقلب أوراقه ، وكان لا يعرف القراءة و « لو عرفها لعرف » أن الكتاب القرآن ، والفصل سورة النور [1]

(١) روى يعقوب بن سفيان فى تاريخه باسناد صحيح عن أبى وائل قال : قرا ابن عباس - رضى الله عنه - سورة النور ثم جعل يفسرها فقال بعض السامعين : لو سمع هذا الديلم لاسلمت .

(١)

درس من القرآن

قد يسمع الكاتب كلمةً من جليسه ، فيتخذها موضوعاً يبنى عليه مقالة مسهبة ، أو يقرأ خبراً فى جريدة ، أو تبلغه واقعة جرت لبعض الناس ، أو يقع تحت نظره وهو يطالع فى كتاب حكمةٌ رائعة ، أو عظة بالغة ، فيجد من كل ذلك موضوعا يفيد القراء إذا اطلعوا عليه ، أو أميلت نفوسهم إليه . وما للكاتب يستمد مواضيعه من تلك المصادر وينتظرها من يوم إلى آخر ، ولا يرجع فى ذلك إلى كتاب فيه من كل شىء ، وقولُه حُكم ، والعمل به غنم ؟

أصحيح ما يقال من أن القرآن أنزل فى زمن خاصّ ، لكى يمارسه أقوام عاشوا فى ذلك الزمن ثم انقضى حكمه لانقضاء زمانهم ؟

أصحيح أن القرآن ما عاد يصلح إلا لما اصطلح عليه المؤمنون به : من جعله وسيلة للاستجداء ، أو الاستشفاء ، أو إطراب النفوس ، وإهداء الثواب إلى سكان المقابر والرموس ؟

أيليق أن يُصبح القرآن الكريم مهجورا بين المسلمين إلى هذا الحد ؟

خذ القرآن الكريم واقرأ فيه بتدبر أيَّةَ سورة أو آية منه ، تجد فى نفسك من الشعور والتأثر الحق ، ما لا تجده فى مقروء سواه .

تقرأ سورةً منه فتجدها مفتتحة بالثناء على الله الذى منَّ على الخلق بهدايته فمازَ أفراداً منهم بمواهب ليست فى سواهم ، وأعدَّ نفوس أولئك

---

(١) كتبت سنة ١٩٠٨ م

الأفراد لتلقى الوحى ، فيستصلحون به فساد البشر ويطهرون نفوسهم من أدران الرذائل . لو لم يكن هناك أنبياء ممتازون بمواهبهم واستعدادهم لقبول الوحى ، فماذا تكون حالة البشر الذين لا يجدون هاديا يهديهم ولا مرشدا يدلهم على سبل الخير والفضائل ؟

لولا الرسل الكرام لما اتجهت نفوس الخلق إلى توحيد الله ، وتنزيهه عن أن يكون له شريك يساعده ، أو ندّ يماثله .

أفلا يكون من العجيب بعد هذا أن يكذب المكذبون أولئك الرسل ؟ وأن يقولوا أن ما أتوا به من الهداية إفك أو من خرافات الأقدمين ، يموهون بها على السذج والمغفلين ؟

ومبلغ حجة المكذبين أن من تصدى لإرشادهم وهدايتهم ، من الرسل ليسوا سوى بشر مثلهم ، ويباشرون من الأعمال ما يباشرونه هم ، فكيف مع هذا يضعون أنفسهم موضع الإرشاد والهداية ؟

وهذا جهل كبير من أولئك المكذبين ، سوف يذوقون وبال أمره ، ويجنون المر من ثمره .

لو تدبروا العواقب واعتبروا بالمثلات التى حاقت بالجاهلين المكذبين من قبلهم ، لما تمادوا فى غيهم وتكذيبهم كيف كبر عليهم أن يتلقوا الهداية من مثلهم ؟ ولو أرسل الله إليهم مَلَكا أو خَلْقا آخر ، لصعب عليهم تلقى الهداية عنه ، وإذ ذاك يكفرون ثم يعتذرون عن كفرهم بأن المرسل إليهم من غير بنى جنسهم ، ولا تلائم طبيعته طبيعتهم .

وكيف يجحد المرء أو يمارى فى وجود الخالق ، وهو إذا نظر إلى الشمس

وما يدور حولها من الأجرام الهائلة، وكيف يتولد الليل والنهار من دوران الأرض، فيكون للبشر نصيب من الراحة والسكون فى ليلهم ثم يهبّون إلى الكسب والسعى فى نهارهم . وهبوب الرياح ! وتكوّن السحب ! وهطل الأمطار ! وكيف تستمد مادها من البحار المزجرجة على وجه الأرض مع أن منها الملح ، كما أن منها العذب، ومن الماء ذرأ الله البشر، ومد بينهم شوابك النسب والقرابة . أليس فى كل هذا ما يدلّ على وجوده تعالى وإيجاده لهذا العالم ؟ وإلا فكيف حدثت كل هذه الشؤون ، وتكوّنت تلك المخلوقات البديعة الصنع ؟ وهل يصح بعد هذا أن يعبد البشر من يُحيل العقل أن يكون له يد أو دخل فى وجود هذه الكائنات ، ونشوء هذه المبروآت ؟ إذا صحّ إيمان المرء بالله تعالى وخالطت بشاشته قلبه ، ظهر أثر ذلك الإيمان على جوارحه ، واتبع طريق الرشاد فى أقواله وأعماله :

من آثار الإيمان الرفقُ والصبر والإعراض عن اللغو والهُجر، وليس منها الطيش والمراء ، والخوض فيما لا يعنيه من شؤون الناس . ومن آثاره مراقبة الله بحيث تمنعه هذه المراقبة عن إتيان منكر ، أو ارتكاب قبيح . ومن آثاره الاقتصاد فى الإنفاق فلا يبذر المؤمن أمواله فيما لا يرجع عليه أو على غيره بفائدة ، كما أنه لا يحبسه دون مصارفه المعقولة وأن يتناول به كل ما أمر به الشرع ، واستحسنه العُرف .

وليس من الإيمان العدوان على الناس فيؤذيهم ، أو يبطش بهم ويغتالهم . ومن هذا القبيل الزنا ، فقد جعله الشرع بمثابة القتل لأن اللقيط يضيع ويموت فى الناس ، وإن كان يأكل ويشرب بينهم .

ومن منافيات الإيمان شهادة الزور، والتوصل بذلك إلى أكل مال الناس بالباطل أو إضاعة حقوقهم .

ومن أكبر علامات الإيمان الانصياع إلى الحق، وتجنب المكابرة. فالمؤمن الكامل هو الذى يفتح عينيه وأذنيه لتلقى الحكمة والتقاط الحقيقة من معادنها، ولا يكون من شأنه معها أن يغمض عينيه ويصمّ أذنيه عنها.

هذه أمثلة من آثار الإيمان وفضائله التى يأمر بها القرآن، وهذا هو المؤمن الذى يستحق أن يكونَ قدوةً للناس يتأسّون به، ويأخذون أخذه، ويكونَ جديراً بما وعد الله المؤمنين من الثواب، كما يكون غيره أهلا لحلول العقاب.

مثل هذا يا سليم [1]

أعجب القراء بما كتبه « سليم » [2] فى عدد أمس (من المؤيد) عن شرب الدخان فى مجلس القرآن وحقهم أن يعجبوا .

أعجبوا بأدب « العقاد » [3] ولم يبخسوا « سليماً » حقه من الإعجاب والثناء أيضاً .

« العقاد » كان فى صنيعه أديباً فقط ، أما « سليم » فقد كان أديبا وواعظا فى آن واحد .

عظة « سليم » ينبغى أن تكون غاية فى تنبيهها لنا ، وتأثيرها فى نفوسنا .

« سليم » نفسه عقد النية على أن يتأدب فى مجلس القرآن مذ الآن ، كما كان يتأدب فى مجلس الإنجيل .

عظة « سليم » بعزمه على أن لا يعود إلى شرب الدخان ، هى - ولا ريب - أفصح وأصرح من عظته لنا بقوله ، وتنسيق جمله .

هذا هو مبلغ تأدّب « سليم » مع « القرآن » وهو لا يعتقد فيه ما نعتقده نحن . فكيف ينبغى أن يكون تأدّبنا ، ومبلغ احترامنا ؟

كان الرجل من سلفنا الصالح إذا سمع القرآن يُتلى ، صعِق ووقع مغشيّا عليه .

---

(١) كتبت سنة ١٩٠٨ م

(٢) هو المرحوم سليم سركيس الكاتب المسيحى المشهور والمحرر فى (المؤيد) يومئذ

(٣) هو الوجيه المصرى الكبير السيد حسن موسى العقاد

القرآن كلام الله . ومن أصغى إلى القرآن، فكأنما هو يصغى إلى الخطاب الإلهى يعظه ويرشده .

هذا هو اعتقاد المسلم فى القرآن، فهل يُنتظر منه أن لا يكون أديبا فى مجلسه ؟

بل لا يحق لنا أن نعجب ممن يتأدب فى ذلك المجلس الكريم ، وإنما يحق لنا أن نعجب ممن لا يتأدّب .

يحق لنا أن نعجب منذ نرى القرآن يُقرأ فى محالِ الخدمة ، حيث تجهز القهوة وأدوات الدخان .

يحق لنا أن نعجب أو نحزن حينما نرى القُرّاء يقرءونه فى الحوانيت الحقيرة حيث تجهز الأطعمة النافهة ، والمصنوعات الممتهنة . وفى القهاوى حيث تُتعاطى المحرمات ، ويُقتل الوقت فى اللعب والملاهى .

يحق لنا أن نأسف مذ نسمع الفونوغراف يُلقى علينا آيات القرآن فى الشوارع والحوانيت فى جملة ما يلقيه من المضحكات والمخزيات

يحق لنا أن نأسف أو نحزن مذ نهجُر القرآن، فلا نعمل بمواعظه وآدابه ، ونَصِلُ [1] القرآن فنتخذه وسيلةً للطرب والشحاذة والاستشفاء : وهى أمور لم ينزل القرآن من أجلها ، وإنما أنزل ليكون شفاءً لنا من داء الجهل، ومرشداً للسعادتين الدنيوية والأخروية

وإذا أُسِف القرآنُ أو حزن لأناس لا يعملون به ، ولا يتأدبون فى مجلسه . فإن هناك أخاً له قد يكون أسفه أشدّ ، وحنقه أكثر .

(١) أى نواصل القرآن ولا نهجره لكنه وصل غيره أرضى لله .

القرآن أنزل فى رمضان . ورمضان موسم الاستكثار من تلاوة القرآن ، فهما أخوان توأمان

شربُ الدخان فى مجلس القرآن ترْكٌ للأدب ، أما شربُه فى شهر رمضان فهو ترك للفرض .

إذا كان الدخان حلالَ الشرب ـ كما هو الواقع ـ فقد يقول القائل : إن استعماله فى مجلس القرآن يكون كاستعمال سائر المحلَّلات : من أكل فاكهة مثلا ، أو شرب شاى ، أو قهوة . وكأن يتكلم المرء مع من بجانبه بشرط أن لا يكون فى ذلك تشويش على القارىء والمستمعين الآخرين : أما شرب الدخان فى نهُر رمضان (على وزن عُنقٌ جمع نهار) فهو مُفطر كالأكل فيه والأكل فيه هتكٌ لحرمته واستهانة بقومية المسلمين

وإذا جاهر المسلمُ بشرب الدخان فى أيام رمضان ، كان الهتك أشنع ، والحرمة أغلظ

كيف يليق بالمسلم المتأدّب والعاقل الأريب ، أن يهتك حرمة شهره على هذه الصورة ، ثم يزعم أنه مسلم أو يحسب إخوانه المسلمين يزعمون فيه ذلك؟

كيف يَطيب ذلك لك أيها المسلم الغيور ، الوطنى الذى يسعى فى إنهاض الوطن بلسانه وقلمه ـ وهؤلاء ـ بنى وطنك ـ يعتقدون فيك اعتقاداً لا يتيسر معه إنهاض وطن ، ولا إصغاء إلى قول

إذا بُليت فاستتر ، وإذا لم تعتقد أن صوم رمضان والعياذ بالله فرضاً دينياً ، فلتعتقده على الأقل تقليداً وطنياً .

ليتك تحافظ على فرائض دينك ، بقدر ما يحافظ الأوربى على عادات وطنه وتقاليد قومه .

يَعُدُّ الأوربيُّ الدخولَ على قومه ، وقبّعته على رأسه ، منافياً للأدب وللعادات القومية .

أيكون رمضانُ وصومُه وحرمتُهُ وقومُك، أيها المسلم،واعتقادُهم فى رمضان واحتفاؤهم بمقدمه وموسمه — أتكون منزلةَ كلِّ ذلك فى نفسك أحطَّ من منزلة القُبّعة فى نفس الأوربى ؟

لمثل هذا ياسليم يذوب القلب، وليس لشرب الدخان فى مجلس القرآن .

(١)

ما هو الكوثر

لو ألقيت هذا السؤال على أيّ مسلم كان ، لأجابك على الفور : إنه نهر فى الجنة . سواء فى هذا الجواب عامة المسلمين ومعظم خاصتهم.

وقد ألقى هذا السؤال نفسه بالأمس، فى بعض مجالس القاهرة فاحتدمت من أجله نار الجدال ، بين شاب نجيب وبين سائر الحاضرين . وقد عجب هؤلاء من جرأة ذلك الشاب وقوله: إن « الكوثر» هو كناية عن الخير الكثير الذى أعطاه الله نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد امتن عليه به فى القرآن، إذ قال تعالى « إنا أعطيناك الكوثر »

ثم قال ذلك الشاب: إن الواجب على كل مسلم أن يستدل بصريح الآية الكريمة ، على أن الله تعالى أعطى نبيه « كوثرا » وكرّمه به . هذا هو القدر الذى نحن مكلفون أن نعتقده ـ معشر المسلمين ـ حسب إرشاد القرآن وإذا أردنا أن نعتقد فى الكوثر اعتقادا آخر، من مثل معرفة كنهه وصفته وجليّة أمره، كان علينا أن نرجع فى ذلك إلى دليل قطعى يصح الاعتماد عليه فى هذا الاعتقاد : إذ أن معنى العقيدة فى اللغة، هو الشىء الذى تشد عليه النفس أى تقطع به ، وتجزم بصحته . والعقد الشد وإحكام الربط . ولا يمكن أن تشدّ النفس على شىء، وتجزم به من دون أن تطمئن إليه وتفهمه بدليله : فما معنى أن نسمى الشىء عقيدة، ولا يكون مقطوعا به عندنا ولا دليل له سوى أثر أو خبر شاع بين الناس ، ولم تتوفر الأدلة على صحة نقله وصدق روايته .

فنظر بعض الحاضرين إلى بعض، وكان فيهم بعض الشيوخ وشعروا بأنه

---

(١) كتب سنة ١٩٠٩ م

يعرّض بهم ، ويضعّف القول بأن المراد بالكوثر النهر الجارى فى عرصات الجنة .

فانبرى للشاب أحدهم ، وقال : أليس الكوثر النهر ؟ ألم تتوفر الأدلة على ذلك ؟ فأجاب الفتى : إننا اعتقدنا بأصل وجود الكوثر استنادا إلى الآية القرآنية الصريحة ، أما كون الكوثر هو النهر فليس من دليل قطعى عليه فيما نقل إلينا من الآثار .

فقالوا له : وإذا لم نظفر بالدليل القطعى من الآثار ، نضرب صفحاً عن الاعتقاد بالكوثر فلا نقول بأنه نهر أو غير نهر ؟ قال علينا ـ حينئذ ـ أن نرجع إلى النظر فى كلمة « كوثر » من حيث اللغة ، وما تفهمه العرب منها إذا وردت فى كلامهم وأساليب خطابهم ، فاعترضه شيخ من زاوية المجلس . وقال له : أن كون الكوثر نهراً فى الجنة أمر معروف ومشهور بين المسلمين ، ويعدونه فى عقائدهم ، ولا حاجة للغة عربية ، ولا لروايات نقلية . وطالما ذكره الخطباء على منابرهم ، والوعاظ فى حلقاتهم ، وأودعه الشعراء أبياتهم . من ذلك قول الشاعر المبدع :

(كتب الرحمن على فمها إنا أعطيناك الكوثر)

فتبسم الشاب لقوله ، وزوى وجهه عنه من دون أن يرد عليه ، وإنما رد عليه بعض رفاقه قائلا : إن عقائدنا الإسلامية لا يليق أن يُستدل عليها بعظات الخطباء ، ولا خيالات الشعراء .

وكان فى المجلس بعض الصلحاء المكثرين من تلاوة الحديث وقراءة كتبه ، فاتجهت أنظار الحاضرين إليه ، وتوقعوا منه كلمة فى الموضوع ، وكان

متكئا فاستوى وأحسن جلسته، وقال: روى أنه لما أنزلت السورة، قال صلى الله عليه وسلم، أتدرون ما الكوثر؟ إنه نهر فى الجنة وعدنيه ربى، فيه خير كثير، ثم قال الأستاذ (ورووا فى صفة ذلك النهر أنه أحلى من العسل، وأشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزبد، حافتاه الزبرجد، وأوانيه من فضة، عدد نجوم السماء. ورووا أيضا أنه لا يظمأ من شرب منه أبداً، أول واردية فقراء المهاجرين الدَّنِسوُ الثياب، الشُعث الرؤس، الذين لا يُزَوَّجون المنعَّمات، ولا تفتح لهم أبواب السُدَد (جمع سدة وهى باب الدار. أى تغلق فى وجوههم أبواب العظماء فلا يؤذن لهم بالدخول) يموت أحدهم وحاجته تتلجلج فى صدره (أى يموت ولم تقض له حاجة) لو أقسم على الله لأبره.)

كان الأستاذ يروى هذا، وعيون الحاضرين تتطلع نحو الشاب، فقال الشاب: إن الصفات والروايات لا نهاية لها، ولكنها لا تغنى غناء فى هذا المقام الذى نرتاد فيه لأنفسنا عقيدةً مستندة إلى دليل قطعى، شأن كل العقائد الإسلامية. وإذا لم نظفر بذلك الدليل من النقل، رجعنا إلى اللغة وبحثنا عن معنى الكوثر، واعتمدنا فى تفسيرها على ما قاله أرباب اللغة أنفسهم.

فقالوا له: وهل اللغة فى مثل هذا المقام حجة، يصح أن نستند إليها كدليل قطعى؟ قال: لا شبهة فى ذلك، لأن القرآن عربى كما ورد فى القرآن نفسه، وقد أنزل لتفهمه العرب. ثم يُتحدَّون بأقصر سورة من مثله، فلو لم تكن اللغة العربية ومعانى كلماتها المعهودة، لدى أهل اللسان حجة لساغ للمشركين المتكلمين بها أن يقولوا أن للقرآن ولكلماته معانى اصطلح عليها غيرنا، لا عهد لنا بها، ولا تأنف مع معانى لغتنا. فنحن معذورون إذا عجزنا

عن فهم القرآن . والإتيان بمثله ، وتكون حجتهم فى ذلك قوية لا يمكن ردها . أما وقد قلنا لهم إن القرآن أنزل بلغتكم ، وفى معانى كلماتكم ، وعلى ما تعارفتم من الأساليب والاصطلاحات، فيكون نكولهم عن الإتيان بمثله إذ ذاك عجزا ظاهرا ، وتحق الكلمة عليهم . فقال الحاضرون للشاب : وإذا لم يكن الكوثر بمعنى النهر الذى فى الجنة فما يكون معناه ؟

قال : حقق أهل اللغة . والعارفون بأسرارها ، واشتقاق كلماتها ، أن الكوثر مشتق من الكثرة ، وتفيد صيغته المبالغة فيها . فمعنى « الكوثر » المفرط فى الكثرة . وقد كان لأعرابية ولد سافر عنها وشط مزاره ، وكاد ينقطع خبره ، ثم رجع إليها غانما رابحا . فقالوا لها « بم آب ابنك؟ » قالت « آب بكوثر » أى بخير كثير . ومدح بعض الشعراء عبد الملك بن مروان فقال فيه :

(وأنت كثيرٌ يا بن مروان طيّب وكان أبوك ابن العقائل كوثرا)

كأنه يقول وكان أبوك مروان مفرطا فى الكثرة : كثرة مال أو خير أو عطاء أو ما يشمل ذلك .

فانظروا كيف أن أهل اللغة إلى زمن بنى مروان - أى بعد انقطاع الوحى - كانوا يستعملون « الكوثر » ويريدون منه الكثرة فى الخير . فإذا ثبت أن معنى « الكوثر » ما قلناه وأننا مكلفون أن نفسر القرآن بلغات العرب وما تعارفوا عليه فى كلامهم ، وجب علينا أن نقول : إن المراد بالكوثر الوارد فى القرآن هو الخير الكثير كأنه تعالى يمتن على نبيه صلى الله عليه وسلم بأن أعطاه « الخير الكثير » وأى خير أكثر وأعظم من جعله نبياً

وحبيباً وقوله له (وإنك لعلى خلق عظيم) وأعطاه فى الآخرة أرفع المنازل وأسمى المراتب إلى غير ذلك من المحامد والمناقب . ولما أراد القوم أن يراجعوا الفتى فى أن روايات أهل اللغة لا تعارض روايات أهل الأثر، قال لهم : وهذا ابن عباس حبر الأمة وعالمها قال — وقد سئل عن الكوثر : إن معناه الخير الكثير . فقال له سعيد بن جبير : إن ناساً يقولون : هو نهر فى الجنة فأجابه ابن عباس : والنهر أيضاً فى جملة الخير الكثير .

ويجب أن ننتبه هنا إلى شيئين: (١) أن سعيد بن جبير قال «ناساً يقولون» وهذه العبارة تشعر بأن القائلين مجهولون : أو معروفون ولكن لا يوثق بقولهم كأن يكونوا أكثروا من مثافنة مُسْلِمَة اليهود والنقل عنهم . يفهم ذلك من كلمة « ناس » كلٌّ من أوتى نصيباً فى فهم لغة العرب واستعمال كلماتها . (٢) قول ابن عباس « والنهر من الخير الكثير » يشعر بأنه لا مانع من أن يكون فى الجنة نهر بالصفات السابقة، ويكون من جملة الكوثر الذى أعطى لنبينا صلى الله عليه وسلم ، لكنه — أى ابن عباس — لم يرد أن يفسر « الكوثر » الوارد فى القرآن بالنهر وحده، كما اشتهر بين ناسٍ من المسلمين لا يؤبه لهم .

ثم اعتدل الفتى فى مجلسه وقال : وها أنذا أعتقد فى كلمة الكوثر الواردة فى القرآن ما كان يعتقده حبر الأمة ابن عباس : فأقول : إنه صلى الله عليه وسلم قد أعطى الخير الكثير ، وقد يكون فى ذلك الخير نهر فى الجنة : فالخير الكثير هو العقيدة الواجب على كل مسلم أن يحتفظ بها ويضمها بين جوانحه كما تضم الأم ولدها .

وعلى هذه الطريقة يجب أن نسلك فى فهم عقائدنا والاستيثاق منها ، لتكون مبنية على برهان ودليل ، ثم لا يكون للطاعنين فيها إليها سبيل .

الصحافة والقرآن (١)

وحرية القول

كان يبلغنا أن أهل المغرب الأقصى ، لا يستجيزون مطالعة الجرائد ويرونها من المحدثات أو البدع فى الدين ويستدلون على ذلك بآية « ومن الناس من يشترى لهو الحديث » وليست الجرائد سوى لهو ، وأحاديث ذات لغو فيكون مشتريها مذموما ، وعمله ممقوتا ، وإذا كان شراء الجرائد أو الاشتراك فيها محظوراً كان إصدارها أو بيعها محظوراً بالضرورة إذ القاعدة الأصولية: إن كل ما حرم بيعه حرم شراؤه ، وعلى العكس . ومن ثم تتابعت السنون ، ولم تنشأ فى مراكش جريدة سوى واحدة على ما أظن تنشر فى طنجه وصاحبها مسيحى سورى ، ولا نعلم إن كان لسلعته مشترون من أهالى البلاد أم لا ؟ .

ومنذ أيام حاول بعض المراكشيين أن ينشىء فى فاس جريدة وطنية تخدم مصالح البلاد وتنشر شيئاً عن شؤون المملكة ؛ وسياستها الخارجية ، وأحوالها الداخلية فلقى تعضيداً من ملك مراكش (مولاى عبدالحفيظ) ، ولكن أولئك العاملين بآية . « ومن الناس من يشترى لهو الحديث » — ومعظمهم من أعيان المملكة والقابضين على زمام مصالحها — عارضوا

---

(١) كتبت سنة (١٩٠٩ م — ١٣٢٧ هـ)

فى إنشاء الجريدة ، وجعلوا يثيرون العامة عليها ويلقون العراقيل فى سبيل إنشائها .

وإذا قلنا للعاملين بهذه الآية : إن الآية لا تريد بنا شراً ، ولا تحرم علينا أن ينتفع بعضنا برأى بعض ، ولا أن يكتب أحدنا إلى أخيه جوابا يودعه ما يراه من مصلحتهما كليهما . إذ ليست الجرائد فى الواقع ونفس الأمر سوى « جوابات » تتردد بين منشىء الجرائد وقرائها ، وليس كل ما تتضمنه الجرائد هو من لهو الحديث ، فإن فيها نصحا وإرشاداً ، وتعليما ، وتربية وأمراً بمعروف ونهيا عن منكر ، ولو قلنا لهم أيضاً إن من يتأمل فى سياق الآية وجدها منزلة لغرض آخر ، وتمام الآية هو « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين» فإن العلماء قالوا فى تفسيرها وسبب نزولها : إن النضر بن الحارث كان يشترى المغنّيات فلا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا أنطلق به إلى قينته فيقول لها اسقيه وغنّيه . ثم يقول له : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه : فقوله تعالى « ومن الناس » أى ومن الناس المشرك نضر الذى يشترى بماله الملاهى ، ليصدّ المسلمين عن سبيل الله وهو دين الإسلام . وقوله ويتخذها هزؤا أى يتخذ سبيل الله هزؤا ، وكلمة « سبيل » تؤنث وتذكر ، ومن المفسرين من قال معنى « يشترى لهو الحديث » يستبدله بصدق الحديث — إذا قلنا لهم كل ذلك أعرضوا وحوقلوا : وقالوا : إنّ الآية تنطبق على كل بيع وشراء تكون السلعة فيه حديثا ذا لغو باطل ، والعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ، وزادوا على ذلك قولهم : إن فى الآية إعجازاً أيضاً . ذلك أنها دلت على حدوث أمر غيبي ، وهو أنه سيظهر فى المستقبل

صحائف تتضمن لهو الحديث ، وتباع على الناس فاحذروا أيها المسلمون من شرائها والاغترار بأقوالها ثم يقولون : إن هذه الآية كما نهت عن شراء اللغو واللهو فى ذلك الزمان ، أشارت إلى النصح لنا بالعدول عن شراء اللهو فى الزمان الآتى . والتفسير بالإشارة معهود عند العلماء وكبار الصوفية بأبعد مما قلناه فى الآية المذكورة . فقد قال بعض كبار الصوفية فى قوله تعالى : « يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » إنه المراد بمريم نفس الإنسان فقوله « يامريم » أى يا نفس « اقنتى لربك واسجدى » أى صلى له وتعبدى وأخلصى فى عبادتك . وإذا قلنا لهم : إن سياق الآية ولحاقها إنما يدلان على أن الخطاب للسيدة مريم أم سيدنا عيسى ، يقولون نعم أنزلت فى خطاب مريم الصديقة ، ولكن فى ذلك إشارة إلى النفس الإنسانية أيضاً . فيكون من جليل الإعجاز وأعلى درجات البلاغة أن تحتمل الآية عدة وجوه وتتضمن جملة رموز .

والذين يحرمون قراءة الجرائد ويرون الصحافة أمرا منكرا ، يأخذون معنا فى تفسير الآيات وتأويل معانيها على نحو ما ذكرنا . فكلما أغلقنا فى وجوههم بابا ، فتحوا من جهات أخرى أبوابا وكلما حاولنا إرجاعهم إلى الحق أوسعونا لوما وعتابا ، وإن أحسن طريقة فى الوصول إلى غرضنا من إثبات فضل الجرائد وجوازها شرعا أن نأخذ من آى القرآن ما يكون دليلا لنا ، وبرهانا على صدق قولنا ، على نمط مايصنع المراكشيون والصوفيون . فكما استدلوا هم بآية واحدة ، يمكننا نحن أن نستدل بطائفة من الآيات ، بل إن تلك الآيات التى نحتج بها لا تدل على مجرد جواز نشر الجرائد ، بل تدل أيضاً على وجوب نشرها وحرية القول فيها ، وأنه ينبغى للمحررين أن يُسهبوا فى

بيان أفكارهم ، والكشف عن آرائهم ، من دون خوف ولا تقية ولا مجاملة وأنه لا يجوز مصادرة الكتّاب فيما يكتبون ، ولا مخبرى الجرائد ومكاتبيها بما يراسلون .

قال تعالى فى صدد إرشادنا إلى أحكام عقود المعاملات، وكتابة الوثائق المتعلقة بها (وليكتب بينكم كاتب بالعدل) أى من أراد كتابة الوثيقة بين المتداينين، فليكن متلبساً بالعدل والوقوف عند الحق، لئلا يزيد أو ينقص فى شروط الوثيقة ، ولماذا لا نقول: إن فى الآية إشارة أو تلميحاً لنا معشر الأمة بأن يقوم فينا كتّاب أكفاء يحاربون البدع ، ويُشرعون طريق الفضائل بيننا ، ويرشدوننا إلى كل مافيه نفع لنا فى ديننا ودنيانا ؟ وماذا يرى صديق (المراكشى) أو (الصوفى) فى فهمنا هذه الإشارة من الآية إذا كان هو يقول : إننى أفهم من (يامريم اقنتى) — يا نفس اقنتى .

ثم قال تعالى « ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » أى أن على الفقيه الذى يكتب وثائق العقود ، أن يتحرى الحق فيما يكتب، وأن يطبق الوثيقة على الشروط التى تكفل صحتها . نعم هذا معنى الآية ، ولكن لماذا لا نفهم منها أيضاً أن القرآن يشير على الكاتب الصحفى أن ينصح لقومه فيما يكتبه فلا يغشهم ولا يخدعهم ، ولا يدع ما يعلم أنه مفيدلهم فى ترقية شئونهم إلى مالا يعلم من أساليب التمويه والتضليل ، ومحصل ما تأمر به هذه الآية أنه يجب على الكاتب أن لا يمتنع عن الكتابة فى الشؤن التى يعلمها ويثق من صحتها مثلما وفقه الله إلى علمها ، وفى ذلك تنبيه له إلى أن العلم نعمة عليه من الله ، والمحافظة عليها يكون ببذلها فى تأييد المصلحة العامة . على حد قوله تعالى « وأحسن كما أحسن الله إليك »

ثم قال تعالى « ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً » يخاطب المتداينين وينصح لهم بأن يكتبو الوثائق بينهم ، ولا يسأموا من كتابتها فيتساهلوا على زعم أنهم الآن أصدقاء ، إذ مايدريهم أن ينقلب الحال ويتعادوا ويرجعوا إلى المحاسبة على النقير والقطمير . فسواء أكان الدين صغيرا أو كبيراً يلزمهم أن يكتبوا به وثيقة ، أو سواء أكان الصك الذى يريدون كتابته مطولا أو مختصرا ، كيفما كان حاله يلزمهم أن يكتبوه ويمليه بعضهم على بعض .

وفى ذلك إشارة أو تصريح إلى نصيحة كتّاب صحف الأخبار بأن يواصلوا الدأب والسعى فى الكتابة إلى أممهم . سواء أكان الشأن الذى يكتبون فيه صغيراً أو كبيراً ، وسواء أكان الحق الذى يسعون فى تأييده صغيراً أو كبيراً ، وعليهم أن يسهبوا القول ويطيلوا الشرح ما شاؤوا وشاءت مقدرتهم . فإن فى ذلك هداية وإرشاداً إلى أممهم .

ثم قال تعالى « ولا يُضَارّ كاتب ولا شهيد » أى لايحسن أن يلحق الضرر بكاتب الوثيقة والشاهد فيها ، بأن لا يُعطيا أجرتهما مثلا ، ولاسيما إذا كان الشاهد انتقل من بلد إلى بلد أو تحمل نفقات فى سبيل أداء الشهادة .

وكل منالله أن يفهم من الآية فهماً إشاريا رمزيا ، هو أنه لايسوغ التضييق على كتّاب الجرائد فيما كتبوه ، بعد أن يكونوا بذلوا مجهودهم واستخاروا الحق وتحروا العدل والنفع . كما أنه لايسوغ أن يطارد مخـــبرو الجرائد ومكاتبوها إذا بحثوا ودققوا وراسلوا جرائدهم بما وصل إليه علمهم بعد التحرى وتوخى الحق والمصلحة .

فهذه الآية تشير أو ترمى إلى عدم جواز التضييق على المطبوعات

ولا تقييد حرية الأقلام ولا إلحاق الضرر بالكتاب ، بعد أن يكونوا متلبّسين بالعدالة ، وقد تحروا أن يكتبوا كما علمهم الله من حيث مطابقة ما يكتبون لاعتقادهم وبراءته من شوائب الهوى والغرض .

وإذا لم يكتف (المراكشى) أو (الصوفى) بهذا القدر من الآيات، ولم يقنعه صحة الاستدلال بها على أن فى القرآن الكريم رموزاً كثيرة، إلى فضل الصحافة ومزاياها فى نفع الأمم، وإلى وجوب حرية القول والإخلاص فيه والمطابقة بينه وبين الاعتقاد ـ إذا لم يكتف بذلك ـ فإن فى القرآن والسنة أيضاً دلائل أصرح وإشارات أوضح ربما عدنا إليها فى فرصةٍ أخرى إن شاء الله .

أمالى أدب [1]

فى لغة العرب

(أو تفسير سورة الأخلاص)

القرآن كلام الله ، لـكنه أُنزل بلغة العرب ، وروعى فيه أسلوبهم ، وبلغ من ذلك مبلغاً أعجزهم ، وتقطّعت دونه أعناقهم ، فلا نكون مباعدين عن موضوع أمالينا [2] إذا أودعنا أمليتنا هذه آياتٍ من القرآن ، ثم فسّرناها وبيّنا وجه الإعجاز فيها ، وعَجّبنا القرّاء من فصاحة مبانيها ، وبلاغة معانيها .

(قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد)

(الصمْد) بسكون الميم مصدر صَمَد إليه إذا قصد إليه ، فإذا فتحتَ الميم وقلت (الصَمد) كان معناه سيّدَ القوم . سُمّى بذلك لأن الناس يقصدونه فى قضاءِ حاجاتهم . و (المُصَمَّد) على وزن (مُعظَّم) المقصود .

(الـكفؤ) المِثل . فكما يقال : كافأ فلان فلاناً بمعنى جازاه يقال أيضاً : كافأ زيد عمراً إذا ماثله . ونقول : فلان كفاءُ فلان بكسر الكاف وكَفْؤه

---

(١) كتبت سنة ١٩٠٩ م (١٣٢٧ هـ)

(٢) لنا طائفة كبيرة فى المقالات بعنوان (أمالى أدب فى لغة العرب) ربما نشرناها مطبوعة فى كتاب على حدة . وهذه إحداها .

بفتحها وكَفْؤه بضمها وكُفُوؤُه — كل ذلك بمعنى أنه مثله . ويقال فى الجمع (أكفاء) . ثم شاعت (الكفاءة) فى المماثلة بين الزوجين حسباً ونسباً .

(بنودارم أكفاؤهم آلُ مِسمَعٍ وتَنْكِحُ فى أكفائها الحَبِطات)

(آل مسمع) على وزان منبر قوم من العرب سموا باسم جدهم مِسمع و(الحَبِطات) أولاد الحرث بن مالك بن عمرو . كان يسمى هو (الحَبِط) ككتِف ثم سمّى أولاده الحبطات .

يقول الشاعر : إذا أراد هؤلاء الحَبِطات أن يتزوّجوا ، فليلتمسوا لهم زوجات من أمثالهم ، وليدعوا بنى دارِم لآل مِسمع : فإنهم لهم أكفاء ودمهم لدمهم بَوَاء . و (البَواء) فى القصاص بمثابة الكفاءة فى النكاح : يقال : باءدم فلان بدم فلان إذا عدَله وساواه . ومنه قول مهلهل مخاطبا ابن الحرث بن عُباد لمّا قتله ، بُؤْ بشِسْع نعل كليب ، و (بؤ) فعل أمر من البَواء . أى لم أقتلك ليكون دمك بَواءً لدم أخى كليب، وإنما لتكون بواءً ومعادلاً لشِسع نعله فقط و (شِسع) النعل و (قبال) النعل الزمام الذى يكون بين الإصبع الوسطى والتى تليها ، فيمسك القدم أن تنسل من النعل . والشِسع إنما يكون للنعل الحجازية فهو لها بمنزلة الزمام يكبح جماحها ، ويمنع شرادها . أما النعال الأخرى فذُلُلٌ مروّضة : لا تجمح ولا تشرد .

(رجع إلى سورة الإخلاص) : يقول الله تعالى لنبيّه : أعلنْ يا محمد عقيدة التوحيد واجهر بها بين الأمم والشعوب الذين ضلّوا فيها ، وغابوا عن حقيقتها . و(قُلْ) لهم (هو) أى الحال والشأن الذى أنبّه أذهانكم إليه (الله أحد) أى قد ثبتت له الوحدانية من كل وجه : فلا يمكن أن يتطرق

إلى ذاته أو صفاته أو أفعاله شيء من التعدّد (الله الصمد) أى الذى ينبغى أن تصمد إليه الناس ، ويقصدوا إليه فى جميع شؤونهم : فلا يتكلموا إلا على إمداده وتوفيقه ، وليدعوا الاستغاثة بالشجر والحجر . والشمس والقمر ، أوأحدٍ من البشر ، أو أيّةِ قوةٍ وقُدْرة من القُوى والقُدَر . (لم يلد) أى أنه تعالى لم ينبثق منه أو ينفصل عنه شيء غيره (ولم يولَد) لم ينبثق هو ولم ينفصل من شيءٍ آخر . (ولم يكن له كفواً أحد) أى ليس إله غيره يكافئه ويساويه فى صفات الألوهيّة ، ومزايا الربوبيّة .

هذه السورة على قصرها ، ووجازة جملها ، استوعبت الردّ على جميع الأمم الذى أساؤوا فهم الوحدانية ، وأعلنت إبطال جميع أنواع الشرك : فبعد أن قرّرت الوحدانيه المطلقة له تعالى بآية (الله أحد) انبرت للمشركين الذين يعترفون بوجود الله لكنهم يقولون : بأن هناك وسطاء بيننا وبينه نستشفع بهم لديه ، ويقرّبوننا زُلفى إليه . فقالت لهم السورة: (الله الصَمَد) أى هو وحده الصَمَد ، والمقصود فى طلب كل مالا يقدر البشر على كسبه وفعله ، أمّا ما يقدرون عليه فيجوز الاستعانة بالبشر فيه .

ثم عطفت السورة إلى أقوامٍ آخرين يعتقدون بالله لكنهم يقولون إنه انبثق منه غيره . ومعنى (انبثق) انفصل : يقال : انبثق ماء النهر إذا كَسَر شطَّه وانفجر . والموضعُ الذى يندفق منه الماء وينبثق ويسمّى (البِثق) بكسر الباء . ومن هؤلاء الأقوام بعض المشركين الذين يقولون: إن الملائكة بنات الله فقالت السورة لهم ولأمثالهم (لم يلد)

وهناك قوم آخرون ذهبوا إلى أنه تعالى انبثق وانفصل من آخر كان

موجوداً قبله ، وذاك الآخر هو الشيطان المعبود الأول : فالشيطان فى زعم هؤلاء أزلىٌ قديم لا أول له . قد انبثق منه البارىء تعالى وتولد عنه . ثم قام هذا الابن بعد ذلك يضادُّ أباه وينازعه الألوهة ، فردّت السورة عليهم بقولها (ولم يولد)

وقد بقى معنا من الطوائف طائفة زعمت أن له تعالى فى الألوهية نداً يماثله فيها ، ويساهمه مزاياها ، وهم الذين يعتقدون بآلهة متعددة ، أو بإلهين فقط : كالمانوية القائلين بالنور والظلمة . ويلقبّون الأول بإله الخير ، والثانى بإله الشر . ويزعمون أن كلاً من هذين الإلهين كفؤ لقرنه . ومعادل له فى خصائص الألوهية : تارة يغلب هذا ذاك ، وطوراً يغلب ذاك هذا . فردّت السورة على تلك الطائفة بكلمتها الأخيرة (ولم يكن له كفواً أحد)

وإن المتأمّل فى هذه السورة ليحار فى أىّ الأمرين أحقُّ بأن يكون مظهر الإعجاز : ألفظ السورة وأسلوبها ؟ أو معناها ومضمونها ؟

السورة مؤلفة من خمس جمل : أربع منها تتركب من كلمتين : اثنتان من تلك الأربع تتركّبان من اسمين ، والأخريان تتركّبان من أداة واسم . وانظر أيها القارىء ، هل يمكن حذف كلمة من تلك الجمل الخمس أو زيادة كلمة عليها ؟ وهل فى ألفاظها لفظ سخيف أو فى معانيها معنى غير شريف ؟

حقاً إن هذه السورة فى الرصف والإيجاز ، غاية فى البلاغة والإعجاز ، ومحُال أن نشعر نحن اليوم أو نتأثر بها كما كان يشعر ويتأثر عرب الجاهلية ، وذلك لسببين :

الأول : أن العرب لذاك العهد لم تفسد مَلَكاتهم وأذواقهم كما فسدت ملكاتنا وأذواقنا نحن اليوم : فقد كانوا لأسرار لغتهم أزكن ، وببلاغتها ألحن ، ولمواقع الإعجاب والإعجاز فيها أفطن

والسبب الثانى : أن القرآن فاجأ القوم مفاجأة على غير عهد بأساليبه ومن دون أن يسبق لهم استئناس بألفاظه وتراكيبه ، فكانوا يتأثّرون بآى القرآن ، ويدهشون لبلاغتها أكثر منا نحن الذين ألفنا نظم القرآن وغفلنا عن عجائبه ، لكثرة ما نردّده ونقرؤه ونسمعه صباح مساء ، ولكثرة ما أخذ الكتّاب والشعراء من صدر الإسلام يقتبسون من كلماته وتراكيبه وأساليبه فيودعونها منظومهم ومنثورهم ، وقد حقّق مؤرخو الأدب العربى أن الأدب أو اللغة من بعد الإسلام تهلهلت وتزخرفت ، وحسنت ديباجتها على لسان الكتاب والشعراء أكثر مما كان عليه حالها قبل الإسلام .

وما ذلك إلا لتأثير القرآن وشيوع كلماته وتراكيبه وأساليبه بين أولئك الكتّاب والشعراء ، بل بين جميع الناطقين بالضاد : فإذا سمعنا اليوم قوله تعالى (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) لا ندهش ونتأثر دهش الجاهلى وتأثره : هذا يدهش لأنه لم يعهد بعدُ من فصحاء زمانه أنهم استعملوا تلك الكلمات على هذا الأسلوب فى مثل هذا المعنى ، وإنما هم يذهبون فى ذلك إذا أرادوه مذهباً آخر من التركيب والتعبير ، على العكس منا نحن اليوم : فإن أسلافنا منذ صدر الإسلام وبعد أن سمعوا آية (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) حفظوها مفردة ومركبة ، وأكثروا من استعمال كلماتها وتحدّى أسلوبها ، فشاعت تلك الكلمات على صور مختلفة ، وقد تحدّى فيها طريقة الآية وأسلوبها ، فأنست الأسماع بها ولم يعد الناس يتأثّرون ويدهشون ببلاغتها .

فليس من الإنصاف أن يقول قائل ـ وخاصة المستشرقين ومن تأثّر بأقوالهم ـ إن القرآن وآياته ليست من البلاغة والإعجاز بحيث يدّعى

المدعون ، بعد أن شرحنا ما تقدم من السبب ، كما أنه ليس من الإنصاف أيضا أن يقال — ولله المثل الأعلى — إن أديصن الكهربائى لافضل له فى اختراعاته ولا مزيّة له على غيره ، الذين درسوا طريقة هذه الاختراعات وصنعوا مثلها فى معاملهم :

اختراعاته هذه اعتدناها الآن ، وفقهنا أسرارها بالجملة وسيأتى وقت لايعود أحد يتفطّن إلى مواضع الغرابة فيها ، لكثرة ماصنع الصناع منها ، وتأمّل المتأملون فى أجزائها وأدواتها ، وأصغى المصغون إلى ألحانها وأصواتها .

مثال آخر من كلام العرب أنفسهم : يدُلّ القارىء على مبلغ ذهاب الألفة والاعتياد بالتأثر والانذهال :

نحن نعرف المثل السائر : (وهل يُصلح العطار ما أفسد الدهر ؟) وقد ألفناه وشاع بيننا حتى بين عامّتنا فى الأسواق وحتى لم نعد نرى فى تركيبه وأسلوبه ومعناه غرابة وحُسنا ، ولكن لا يمكن أن يكون شأن هذا المثل لحين أول ناطق به كشأنه فى هذا الحين ، كما لا يمكن أن يكون وقعه فى أسماعنا كوقعه فى أسماع الرهط الذين قيل بينهم ، وأنشد على مسمع منهم

نظر شيخ طاعنٌ فى السنّ من الأعراب إلى امرأته العجوز الدَرْدبيس وقد تصنّعت وتكحّلت وتعطّرت وخضبت كفيها بالحناء ، ولبست ثيابا صفرا كما تلبس عذارى الحى ، وكان الشيخ قد أحسّ من قبل أن عجوزه تسرق من مؤونة البيت ، وتعطى ما تسرقه العطار : تستبدل به الطيبَ والكحل والحناء والعطر ، فاغتاظ منها وأنشد :

(عجوز ترجىّ أن تكون فتيـــة وقد لحب الجنبان واحدودب الظهرُ)

(وما غاظنى إلا خضاب بكفها وكحل بعينيها وأثوابها الصُفرُ)

(تدس إلى العطار ســـلعة بيتها وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر)

(لحِب) الجنبان قل لحمها و (بعير ملحوب) أى مهزول . (تدس) تعطى خفية ومن غير أن يطلع عليها أحد و(سلعة) بيتها كناية عن السمن والدقيق وما أشبه ، فما ظنك بوقع هذا المثل (وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر) فى نفوس أهل الحى رجالا ونساء ، ومبلغ تأثيره فى قلوبهم ، وهم بعد لم يألفوا استعمال كلمة العطار فى مثل هذا التركيب ، ولا إيرادها فى مورد التنكيت والتبكيت ، وقد هاج هذا الشعر الشيخة وأثار سخطها على بعلها الشيخ مذ شهرها بين نساء الحى وجرح كرامتها ، فاستصرخت معارفها من النساء ، فأقبلن جميعاً عليه يضربنه ويلطمنه ، فاستغاث بالرجال فلم يكن أحد منهم فى الحى ينصره عليهن ، ويُنقذه من بين أيديهن . ثم لم تكتف الشيخة بضربه ولطمه ، بل رأت أن تتشفى بهجوه وشتمه ، فقالت ترد عليه :

(ألم تر أن الناب تحلب علبـــة ويترك ثِلْبٌ لاضراب ولاظهر)

(الناب) الناقة المسنة و (علبة) بضم العين إناء من جلد يحلبون فيه و (الثِلب) بكسر الثاء الجمل المسن و (الضِراب) نزوان الفحل .

تعرّض العجوز بزوجها وتقول له : كيف تزعم أن الدهر أفسدنى فلم أعد أصلح لشيء ! ! أنت الذى ماعدت تصلح . أنا وأنت كالناقة والجمل المسنين ، وكثيراً ما تراهم يحلبون هذه الناقة فتملأ العلبة لبنا ، أما ذاك الجمل فيُترك مهملاً فى المرعى : لا يُنتفع بضرابه ، ولا بالركوب على ظهره

ولكن ياحضرة الشاعرة ، والزوجة الشريرة القادرة ، إذا كان زوجك على ماذكرت ، ومن العجز ، بحيث وصفت ، فلمن تتزينين ؟ وعَلامَ تتخضبين وتتعطرين ؟

القرآن فى مستنجر الطعائن [1]

كثيرا ما نسمع أن فلاناً من كتّاب الإفرنج طعن فى القرآن ، أو حط من قدر القرآن ، فتارة كان ينبرى للردّ عليه فضلاء من المسلمين وآونة يتصدّى له فاضل من منصفى قومه ، فيُسَفّه رأيه ، ويدحض حجته

وآخر ما بلغنا من هذا القبيل أن الموسيو (سالمون ريناش) ألف كتابا فى تاريخ الأديان حمل فيه على القرآن حملةً منكرة ، وجردّه من كل مزيّة فيه حتى مزيّة الفصاحة والبلاغة فزعم أنه خلوٌ منها ، بعيد عنها ، فلم يُطق الدكتور (موريس) الصبر على سماع قوله : فردّ عليه رداً عنيفا ، وقد نُشر الرد فى جريدة (لابارول فرنسيز رومان)

وكلا الرجلين من فضلاء الكتّاب الفرنسيين ولا سيما الأخير منهما : فإنه من كبار المستشرقين ، وقد حذق اللغة العربية ، ووقف على آدابها وأسرار بلاغتها ، ومارس الترجمة منها إلى لغته ، وشهرتُهُ هذه حملت حكومة فرنسا فى هذه الأيام الأخيرة على تكليفه نقل القرآن إلى اللغة الفرنسية وهو الآن يبذل قصارى جهده فى أن يترجم القرآن ترجمة يحافظ فيها على بلاغته وعدم ضياع شىء من مقاصده

أما ما كتبه هذا الدكتور الفاضل فى الرد على الموسيو ريناش فننقله هنا ثم نقفيه بسرد أمور نظنها منبعث نقد الناقدين ، وملتأ أوهام الواهمين

* * *

(١) كتبت سنة ١٩١٠ م

قال الدكتور

« ربما لا يجد المسيو (سالمون رينانش) أحداً أكثر منى إعجاباً بفضله وشدة ذكائه ، وكثرة إنصافه ، غير أن إعجابي به لا يحملني على التسليم له فى كل مايقول ، فإنى أرى أن التسامح معه إلى هذا الحد يزيده غلواً فى أفكاره ، وابتعاداً عن الحق فى آرائه ، وقد دعاه هذا التسامح من بعض معارفه إلى إعادة نشر كتابه (تاريخ الأديان) فطبعه على حسابه وتحت توقيعه ، من دون أن يعيد نظره عليه ، فيصحح غلطه ، ويتلافى ما فرط منه .

ومن غريب أمره أنه تحامل على الطبقة الراقية من فضلاء العرب ، فلم يدع كلمة لعن أو قذف حتى جاد بها عليهم عفواً ، وقد أشبه فى صنيعه هذا رهبان (جرنياد) المعمدانيين الذين عاشوا فى القرون الوسطى

أما القرآن فقد قال فى وصفه : إنه ركيك العبارة ، خال من الفصاحة والبلاغة ، ولم يكتف بذلك بل تقوّله بأبشع منه ، مما أفضّل السكوت عنه ؛ ولقد قلقت نفسى لقول المسيو (رينانش) واضطربت حواسى : إذ لو جاز لامرىء غير مسلم أن يرتاب فى صدق القرآن ، وصحة دعواه ، فلا يجوز له أبداً أن يرتاب فى صحة عبارته وكونه فى الذروة والسنام من الفصاحة والبلاغة ، ومن لم يسلّم بهذا كان مخطئاً بل كان متهماً فى إخلاصه ، وإن شئت قلت فى عقله

إن كان للقرآن منقبة لا يشوبها نقص فهى الفصاحة والبلاغة ، أو كان له مزية عظمى يفتخر بها ثلاثمائة مليون من البشر ، فهى استعلاؤه على سائر الكتب السماوية من حيث سلامة مبانيه ، وجمال معانيه ، بل لنا أن نقول : إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الأزلية لبنى البشر : فهو قد تضمّن

أناشيدَ لإسعادهم خيراً من أناشيد فلاسفة اليونان ، وقد استوعب بين دفتيه الثناء على مبدع السموات والأرض ، وتمجيد الله الذى أعطى كل شيء خلقه ، وهَدَى كل شيء إلى مايطمح إليه استعداده . إن القرآن بمثابة ندوةٍ علمية للعلماء ، ، ومُعجم لغةٍ للغويين ، وأجرومية نَحْو لمن أراد تقويم لسانه ، وكتاب عروض نحب الشعر وتهذيب العواطف وانسكلوبيديا (دائرة معارف) عامة للشرائع والقوانين ، وكل كتاب سماوى جاء قبله من لدن (داود) إلى زمن (جان باتموس) لا يساوى أدنى سورة من سوَرِه فى حسن المعانى ، وانسجام الألفاظ

ومن أجل ذلك ترى رجال الطبقة الراقية فى الأمة الإسلامية يزدادون تمسكا بهذا الكتاب ، واحتراما له ، كلما ازدادوا علما بالحقائق ، ويزدادون غراما فى عجائبه ، واقتباسا لآياته : يزيّنون بها كلامهم ويبنون عليها آراءهم ، كلما ازدادوا رفعةً فى الفدر ، ونباهةً فى الفكر . وَطَّنَ هؤلاء القوم نفوسهم على حب القرآن وتقديسه ، وما عادوا يفكرون قط فيما أوتيت الأمم الأخرى من كتاب أو شريعة ، ولا يحسدونهم على شيء من ذلك : فقدرأوا فى كتابهم غنيةً عن كل كتاب ، وفى فصاحته وبلاغته مجتزأ عن كل فصاحة وبلاغة فى سواه . يدلّك على صحة قولنا أنك ترى كبار الكتّاب والشعراء الإسلاميين يطأطئون رؤوسهم أمام بلاغة كتابهم ، ويكادون يسجدون لعجائبه التى تتجدّد ، وأسراره التى لاتنفَد ، ويعدّونه فخرهم الباقى إلى منتهى الأزمان ، وبحرهم الزاخر بفصيح الكلام ورقيق المعان .

وكنت أتمنى للموسيو (ريناش) أن يتمهل فلا يحكم على القرآن حكمه

القاسى ريثما تتمّ ترجمتى له ، فيعرف منها مبلغ درجته فى البلاغة وسمو المعانى، ويتحوّل ارتيابه فى صحته إلى اعتقاد ثابت ، وإيمان سليم ، وإلا فإن عدمَ معرفته بلغة القرآن غير كافية للحكم عليه ، كما أن اقتصاره على ترجمتىْ (ساقارى) و (كازيمرسكى) لايوصله إلى الغرض المطلوب ، ولا يعطيه حقيقة أمر القرآن . وإن رجلاً عادلا منصفا كالموسيو (ريناش) قضى حياته فى خدمة الأدب والتأليف لا يأنف من اتباع الحق، بعد أن يتضح له فيصحّح خطأه ، ويرجع عن فريته التى ألصقها بالقرآن ، وغاظ بها العالم الإسلامى ، ورجوعه هذا كما هو من الواجبات الأدبية ، ينبغى أن يعدّ من الواجبات الوطنية أيضا . ولعمرى إنه ليس من حسن التدبّر ولا من اللياقة فى شىء ، أن نرى ألوفا من المسلمين لا يزالون يتردّدون فى قبول التابعية الفرنسية . ثم نحمل عليهم فنتفنّن فى سبّهم وشتمهم ، وعلى دينهم فننسب إليه كل شناعة وخصلة ذميمة ، وعلى كتابهم المقدّس فنصفه بالركاكة والتجرّد من الفصاحة والبلاغة ، ثم ننتظر منهم بعدَ هذا كله أن ينبذوا الحقد ويمحضوا الود ، ويحفظوا العهد .

وسوف يعلم الموسيو (ريناش) بعد أن تزداد خبرته بالعالم الإسلامى أن الطبقة المستنيرة فيه أشدُّ احتراماً للدين ، وأكثر تمسكا بآدابه : والتزاما لحدوده ، كما أن الناشئين وطلاب المدارس أصبحوا لا يُطيقون سماع كلمة احتقار فى هذا الكتاب الكريم ، الذى امتاز عن الكتب السماوية بصحة نسبه من جهة ، ومن جهة ثانية فإنهم يعتبرونه المرجع فى صيانة لغتهم العربية ، والعمدة فى تطبيق أصولهم الدينية .

وبعدُ فإنى أودّ للموسيو (ريناش) ما يوده لنفسه من رواج تأليفه ، وأن

يقع موقعا حسنا فى نفوس الفتيات والسيدات اللواتى اشتد ظلام الجهل عليهن من أمر القرآن فأسأن به الظن ، ويكون لريناش بعد تصحيح أغلاطه فضل لا يُنسى فى تنوير الأفهام ، وإزالة ذلك الظلام اه

* * *

انتهى كلام الدكتور (موريس) . وبقدر ما نشكر له تلطفه وإنصافه نرثى للموسيو (ريناش) الذى سولت له نفسه أن ينتقد أسلوب القرآن ويحط من قدر بلاغته ، وهو لم يعرف من اللغة العربية إلا بمقدار مايعرف علماء الأزهر من اللغة الفرنسية .

أترى ياحضرة الموسيو ، لو قام الشيخ (مدوخ) من علماء الأزهر وقرأ ترجمة تلماك التى وضعها رفاعة بك كما قرأت أنت ترجمة القرآن التى وضعها (كازيمرسكى) ثم بعد ذلك حكم الشيخ (مدوخ) حكما باتا بأن كتاب تلماك - الذى يقول الفرنسيون : إنه أفصح كتاب ألّف فى لغتهم - ليس فصيحا ولا بليغا وإنما هو ركيك مُعسلط : أترى لو قال الشيخ مدوخ ذلك ، هل يسلّم له الفرنسيون ؟ أم يردّون عليه وينسبون الجهل والخطل إليه ، ثم يحكمون على علماء الأزهر بأقسى الأحكام ، ويجعلونهم مُثلة بين الأنام ؟

وقد كفانا حضرة الدكتور (موريس) مؤونة الرد على ريناش ، غير أننا ذاكرون بهذه المناسبة أمورا كلية ربما أدى تدبرها ، وإمعان النظر فيها إلى إنصاف القرآن ، وتصحيح الحكم عليه .

(١) القرآن فى أعلى رتب البلاغة ، وليست البلاغة فى الكلام ، سوى أن يصيب النفوس العاتية المصرة على الباطل ، فيقودها صاغرة إلى حظيرة الحق وهكذا دأب القرآن : فقد كان يُشرف على نفوس بلغاء العرب

ويخاطبهم فى الأمور المخالفة لعقائدهم الموروثة ، فيطعن على هذه العقائد ويبين فسادها ، فلا يكون من تلك النفوس المتكبّرة المتحجّرة على العناد إلا التصاغر بين يديه ، والتسليم لقوله والإذعان إليه ؟ . وإن أبت الإذعان وقفتْ موقفَ الحَيرة ، فتارةً تزعم أن القرآن سِحر ، وطوراً تحذّر من تأثيره فتَغرى غيرها باللغو فيه والإعراض عنه ، (لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه)

هكذا كان موقف العرب إزاء القرآن ، وهذا مبلغ تأثيره فى نفوسهم ، وإذا لم يكن هذا التأثير هو البلاغة بعينها فما هى البلاغة إذن ؟

(٢) كل آيات القرآن بليغة ، حتى ما لا نفهمه نحن مما يسمّونه « المتشابهات » فإنه إذا تقاصرت العقول عن فهم هذه الآيات المتشابهة بالنظر لفساد اللغة ، وضعف ملكتها فى النفوس ، فإن أهل اللغة أنفسهم ما كانوا ليختلفوا فى فهمها . أو يقفوا دون إدراك معناها ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون تلك الآيات ولا يمارون فيها ، ولا يسألون النبي (صلى الله عليه وسلم) عنها.

(٣) لم يجىء النبي بالقرآن من عند نفسه ، ولم يدّع الوحىَ افتراء على ربه . والقرآن أكبر شاهد على ذلك . فإن فيه لوماً للنبي (صلى الله عليه وسلم) وعتاباً وإرشاداً أحيانا إلى ماهو الأصوب والأولى ، وإذا أخطأ امرؤ مهما كان شأنه صغيرا ، يصعب عليه أن ينبّه إلى خطئه على رؤوس ، الأشهاد ، أو أن يشيع بين الناس أمرَ خطئه ، ولا سيما إذا كان فى صدد تأسيس رياسة لنفسه . وفى القرآن آياتٌ كثيرة تدلّ على أنه (صلى الله عليه وسلم) اتبع خلاف الأولى فهى تنبهه وتعاتبه — كقوله تعالى (عبس

وتولى أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يزكّى ، أو يذكّر فتنفعه الذكرى) (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ) إلى قوله تعالى (فتكون من الظالمين) (يا أيها النبي لم تحرّم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك) (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ـ (عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم ؟)

فلو لم يكن هذا القرآن وحياً من الله وقد أوجب على النبي (صلى الله عليه وسلم) تبليغه إلى البشر طبق أصله — لكان للنبي مندوحة عن ذكر آيات العتاب والدلالة على الصواب ، فإنه (صلى الله عليه وسلم) ـ كما يعترف منكرو نبوّته ـ من أعقل الناس وأشدّهم فطانة ، فكيف يُعلن خطأه ؟ ويعرّض مركزه للزعزعة والسقوط لولا ما يعرف من أن هذا المركز مؤيّد من قبل العناية الالهية ، وأنه تعالى بالغ أمره ، وأنه مَسوقٌ على غير اختيارٍ منه بسائقٍ سماوي إلى تبليغ جميع مايلقى عليه، ويُوحى به إليه ؟

« ٤ » لم يُنزَّل القرآن ليكون مجموعَ مسائل فنّية ، أو كتابَ علمٍ لدراسة الحقائق الطبيعية ، وإذا تعرّض أحياناً لذكر السماء والأرض وظواهر الجو ، وعجائب الخليقة ، وقُوى الطبيعة ، فإنما يذكر ذلك لينبهّنا به إلى عظمة الكون ، وغرابة صنعه ، من حيث يسوقُنا تصور ذلك إلى الإيمان بصانعه ، وكريم صفاته ، وصدق ما وعد وأوعد به

وإذا رأيتَ في القرآن أمراً يخالف ظاهرُه ماتقرّر في العلم الطبيعي ، وثبت ذلك ثبوتا قطعيا ، فلا تعجل بالرد والتكذيب ، ولكن ادَّرِعْ بالرويّة والتفكير : فقد يكون ماورد في القرآن واشتبه عليك أمره مراعىً فيه عُرف المخاطبين ، وما اصطلحوا عليه ، فإن هذه المراعاة الخطابية ، تساعد على التأثير واحتذاب النفوس إلى الاقتناع والإذعان . وهذه هي

بلاغة القرآن التي أفادت في تثبيت النبوّة ، وبثّ الدعوة ، وسوق الناس إلى السعادتين الدنيوية والأخروية .

مثالُ هذه المراعاة أن القرآن وَصَفَ آكل الربا حينما يقوم من قبره يوم القيامة بأنه (كالذى يتخبّطه الشيطان من المسّ) والمسّ الجنون . وعرب الجاهلية ، وكثيرون منا اليوم يزعمون أن الجنّ يدخل فى جسم الإنسان فيجنّ ويصير يلتبط ويختبط .

فالقرآن لم يقرر هذا الأمر ليكون علماً ثابتاً ، وإنما أراد أن يُفهم المخاطبين أن قيام آكل الربا من قبره على حالة من الالتباط والاضطراب تشبه حالة ذاك الذى تزعمون أن جنيا لبسه وتخبّطه . فلو عدل عن هذا التعبير إلى التعبير العصرى وقال (كالذى تتخبّطه نوبة عصبية) أتُراه يؤثّر فى نفوس المخاطبين التأثير المطلوب ، وهم لا يعرفون ماهى النوبة العصبية ولم يُرِدْ الله تعالى بَعْدُ أن يهيء نفوسهم لفهم دقائقَ طبيعية تحتاج إلى سبق مقدمات وطول ممارسة .

ومثل هذه الآية آية أخرى وصف بها تعالى ثمر شجرة الزقوم التى تنبت فى أصل الجحيم فقال ـ (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) : فقد كان العرب يزعمون أو يتخيّلون أن للشياطين رؤوسا منكرة . والدّين إذا كان يعلمّ بالشياطين وبوجودهم ، لا يعلمّ أصلاً بأن لهم رءوساً بشعة على هيئة ثمر الطلع بحيث يصح أنْ يُشبّه الثمرُ بها ، وإنما إثبات الرؤس الهائلة لها شيء تتخيّله العرب فصار من البلاغة أن يُشَبَّهُ الجسم الناتىء المستدير البشعُ المنظر بتلك الرؤوس ، والقرآن أنزل بلغة العرب وروعى فيه أساليبهم وبلاغتهم ، ولذلك شبّه ، طلع شجرة الزقوم بها ، اعتبر ذلك بما قاله المؤوّ

القيس فى وصف سهامه المسنونة سناً مبالغا فيه : إذ شبهها بأنياب الأغوال (وقال : أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ... ومسنونةٍ زرق كأنياب أغوال) فهل تحسب أن امرأ القيس يقول بوجود أغوالٍ لها أنياب ؟ وإنما هو شىء اصطلح فصحاء زمنه عليه فى الوصف والتشبيه فذكره فى شعره .

وهكذا الفلكى العصرىّ يقول فى حديثه : إنه كان فى موضع كذا وقد رأى الشمس تغرُب فى البحر ، يقول هذا وهو يعتقد أن الشمس لا تغرب وإنما الأرض تتحركُ وتدور وتحجب عنه قرص الشمس، فلا يحسن أن تكذبه أو تقول إنه يقرر خلاف الحقيقة . وإنما الرجل يخاطب الناس بلسانهم وأسلوبهم الذى ألفوه . لا بلسان علومه الفلكية وأسلوب اصطلاحاته الفنية .

وقد يكون ماورد فى القرآن مما أوهم خلافَ المقرَّر فى العلم الطبيعى ليس من كلام الله ابتداء ، وإنما هو من قول آخر قصَّ الله علينا قصته ونسب إليه قوله ، فالخطأ من القائل لا منه تعالى شأنه ، وعزَّ سلطانه . مثالُ ذلك ما حكىَ القرآن عن السامرىّ ، وأنه اتخذ من الحلىّ عجلاً جَسَداً له خُوار ، وأن هذا الخُوار أو الحياة نشأت فى العجل مذ ألقى فيه شىءٌ من أثَرِ حافرِ الرسول (وهو جبريل) ولكن كون هذه الحياة ناشئةً عن أثر الحافر ليس مما قرره القرآن ، وإنما هو شىء زَعَمَهُ السامرىُّ وأسْنَدَ فيه الإخبارَ إلى نفسه ، قال : فَقَبَضتُ قبضةً من أثر الرسول : السامرىّ يقول إنه توصل إلى إحياء العجل بقبض القبضة ، فقصَّ القرآن علينا قوله ولعله كاذب فيه ، ويكون سبب هذه الظاهرة الحيوية فى جسد العجل حركة ميكانيكية مثلاً ، فلا يحسن إذن أن نتهم القرآن بأنه يهدم النواميس الثابتة

ويذهب إلى جواز تحول الجسم المعدنى إلى جسم حى بمجرد إلقاء حفنة تراب فى جوفه

(٥) ليس القرآن سفر تاريخ ولم تذكر أخبار الأولين فيه ليتلقّاها المخاطبون كما يتلقّون مسائل التاريخ : فلا يضرّه أن لا تكون هذه المسائل مسرودة فيه ومرتبة على نحو ترتيبها فى كتب التاريخ ، وإنما هو يذكر قصص الأولين كلما سنحت لها مناسبة : مقدمة ومؤخرة : موجزة ومسهبة . كلّ ذلك للاعتبار بأسباب النعم والنِقَم ، والنظر فى نتائج أعمال الأمم وللاستعانة بهذه القصص ، على الترغيب والترهيب والإيقاظ والتنبيه فتتأثر النفس وتستجذى ، وتخضع لما أراده الله سبحانه منها

وهذا القدر من سرد القصص هو كل ما يتطلّبه البليغ فى الاعتماد على بلاغته ، وطريق الوصول إلى غرضه ، فعدم تبويبها وتنسيقها فى القرآن إن لم يوافق أساليب المؤرخين فهو موافق لأساليب البلغاء المتقنين

على أن بلغاء كتّاب الإفرنج فى عصورهم الأخيرة إذا أفرغوا مبادىء الأدب والأخلاق والتاريخ والاجتماع فى قالب رواية ، قدّموا وأخّروا فى أجزاء موضوعها : بحيث تقرأ فاتحةَ الرواية فلا تفهم شيئا ، ثم كلّما تسلسلَ الحديثُ بك ازددت فهماً لها ، وتعقلا لموضوعها ، وأغراض مؤلفها ، وكلهم يقولون إن هذا الأسلوب فى وضع الرواية أبلغ فى التأثير وأشد فى الإيقاظ وتحريك النفس

(٦) أهم مسائل الفلسفة العصرية بل أشد الآراء العلمية العصرية تأثيراً فى العقل البشرى وقلب أوضاع الاجتماع الإنسانى مسألتان : كيف نشأ هذا العالم ؟ وكيفَ تكوّن الإنسان ؟

ولم يأت القرآن الكريم بما ينافى الحقائق العلمية فى هاتين المسالتين :

فى خلق العالم أشار تعالى إلى أنه خلقه من مادة سديمية أو ضبابية سمّاها دخانا فقال جلّ شأنه (ثمّ استوى إلى السماء وهى دخان) وأشار أيضا إلى أن الأرض والسماء (كانتا رتقاً ففتقناهما)

وأما فى تكوين الإنسان فكل ما ذكره القرآن بشأنه ، إنما هو تصوير الحالة الإنسانية فى أول أمرها ، وتمثيل لأطوارها ، فى بدء نشوئها ، و(آدم) ليس نصاً فى أن المراد به الشخص المعيّن فكما نعتقد أن (آدم) اسم لنبىّ كريم هو أب البشر ، كذلك يمكننا أن نقول : إن كلمة (آدم) تطلق على جماعة البشر أنفسهم الذين هم سلالة ذلك النبىّ الكريم والأب الرحيم . وقديماً استعمل العرب أسماء الأعلام هذا الاستعمال : فيطلقون كلمتىْ (تميم) و (مُضَر) مثلاً على القبيلتين الكبيرتين كما يطلقونها أحيانا على جدّيهما

فمن لاحظ أسلوب التمثيل الذى يقتضيه البلغاء ، ولاحظ استعمال اسم العلم فى الجد وفى الذرية — من لاحظ الأمرين وقرأ آيات بدء خلق الإنسان فى محكم القرآن — تجلى له شىء من عجائب هذا الكتاب السماوى الذى يزيدك ثقةً بالله وإيقانا ، كلما زدته تأملا وإمعانا .

بقى أن نقول إن المفسّرين الذين وصلت إلينا كتبهم ، إنما تكلموا على القرآن من حيث لغته أو بلاغته ، وتطبيق آياته على مسائل العلوم العقلية والنقليّة ، أما الكلام عليه من حيث هو كتاب دعوة وإسعاد وهداية وإرشاد ، فظنى أنه لم يفسر بعدُ وإلا لما سمعنا أمثالَ الموسيو (سالمون رياش) يقول ماقال ، ولما احتجنا إلى الدكتور (موريس) ينوب عنا فى الجدال والنضال .

رَوَى يعقوب بن سفيان فى تاريخه بإسناد صحيح عن أبى وائل قال : قرأ ابن عباس — رضى الله عنه — سورة النور ثم جعل يفسرها . فقال رجل لو سمعت الديلم هذا لأسلمت .

بل عارفوه ولكنكم معرضونه

كان حديث القوم بالأمس شجونا : فكانوا يتنقلون بين المسائل. تنقّل النحل بين الخمائل . وأول ما افتتح الكلامَ شابٌ نبيه من تلامذة المدارس . فقال : ينكرون علينا اليوم أن ننسب إلى الطبيعة عملا ، فإذا وصفنا المروجَ فى زمن الربيع مثلا ، وقلنا (إن الطبيعة جَلَتْهَا لنا عروساً ، بعد أن أفرغت عليها من الوشى لَبوسا) قالوا : إن الله هو الذى فعل هذا الفعل وليس الطبيعة ، ويزعمون أن ذكر لفظ « الطبيعة » يشعر بالذهاب مذهب الدهريين فى إنكار الخالق تعالى ، مع أن كتاب الإسلام المتقدمين كانوا ينسبون إلى الطبيعة ما يريدون نسبته إليها من دون حرج ، إذهم يعلمون أن القائل لم يرد بالطبيعة إلا القوى التى أودعها البارىء تعالى هذه الكائنات ، وبثها فى عناصرها ، وإذا راجعت ما قاله صاحب القاموس فى مادة « سعل » وجدته يقول فى تعريف السُعال (إنه حركة تدفع الطبيعةُ بها الأذى عن الرئة وعن الأعضاء التى تتصل بها) ومن هنا انجر بالقوم الحديث إلى السِعلاة واحدة السَعَالى ، فقال بعضهم : إنها الغول وقال آخر : إنها ساحرة الجن ، وقال : ثالث إنها مخلوق غريب الشكل بين الإنس والجن : كان يزعم عرب الجاهلية أنه يسكن فيافى جزيرتهم ، وهو خرافة من خرافاتهم ، حتى زعموا أن عمرو بن يربوع أحد رجالاتهم تزوج واحدةً من هؤلاء السَعالى فولدت له أولادا . وقد قال بعض الشعراء يهجوهم :

(ياقبّحَ الله بنى السـعلاة عمرِو بن يربوع شِرار النات)
(ليسوا أعفّاء ولا أكيات)

والتاء فى (النات) و (أكيات) مقلوبة عن سين ، وأصلهما (الناس) و (أكياس) وهى لغة بعض قبائل العرب .

وزعموا أيضا أن السعلاة المذكورة زوجة عمرو رأت البرق مرة يومض من جهة بلادها فاستفزّ لبّها وقالت لزوجها :

(أمسك بنيك عمرو إنى آبقُ برقٌ على أرض السّعالى آلق)

ثم طارت إليهم لاردها الله .

وانتقلوا فى المناسبات إلى مذهب (دروين) فقال بعضهم : إن خلاصة هذا المذهب : أن الكائنات الحيّة سـواء أكانت حيوانات أو نباتات وجدت أنواعها المختلفة ، وتولدّ بعضها من بعض بتأثير القوى والأسباب الطبيعية ، وأن هذه القوى والأسباب لاتزال تفعل فى الأنواع إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله . ويمكن للمرء أن يمتحن هذا التنوّع والتولدّ بنفسه : فيزاوج بين أنواع الحيوانات المختلفة نكاحا ، والنباتات المتباينة لِقاحا .

وانتقلوا إلى السياسة ومستقبل البلاد المغلوبة على أمرها ، فقـال واحد منهم : لا تنسوا ما قاله تورغو الشهير : « إن المستعمرات كالأثمار متى نضجت لابد أن تسقط عن أمها فعلى زعماء البلاد أن يجتهدوا فى إنضاج بلادهم بالعلم والمعرفة والتربية الصحيحة

ثم انتقلوا إلى موضوع آخر : فقال بعضهم : إن قياصرة الروسيا كانوا يُتَوّجون أولا فى (كيف) وكانت هذه المدينة أعظم مدنهم ، وهى أقرب إلى شطوط البحر الأسود من مدينة موسكو ، ثم ضعف شأنها بعد

القرن الثانى عشر، لما أن خواقين التتر تسلطوا على أولئك القياصرة، وفرضوا عليهم الجزية، فصاروا من يومئذ يُتَوَّجون فى موسكو لبعدها عن بلاد التتر .

وقال آخر : إن أصل الحجاب الشرعى إنما هو للمرأة ذات الجمال الذى تُخْشَى منه الفتنة، أما من لم تكن بهذه المثابة من النساء فلا حجاب عليها، واستدل على ذلك بما فعله عمر رضى الله عنه : فإنه كان إذا رأى امرأة فى السوق منقَّبة كشف عن وجهها فإن رآها جميلة أمرها بملازمة النقاب وإلا أمرها بنزعه . قال ذلك الأديب : ثم إنه على تمادى الأيام صار النساء كلهن يتحجَّبن ويحرصن على اتخاذ النقاب، ليكون ذلك علامةً على حسنهن وجمالهن إذ مَنْ منهن ترضى أن لا تكون لها تلك العلامة ؟ أو يقال عنها إنها ليست ذات حسن ووسامة ؟ فضحك الحاضرون وعجبوا من تلطفه فى استدلاله، وذكر آخر (سميراميس) ملكة أشور، وما كان من عنايتها بعمران عاصمتها (بابل) وما أنشأته فيها من القصور والبساتين، إلى أن جرى ذكر ملكة مصر (كلوباطره) الشهيرة بجمالها فقال أحد القوم : إنه كان فى ملوك الدولة السادسة من الدول التى حكمت مصر ملكة تسمى (نيكتوريس) وكانت على جانب عظيم من الحسن والجمال والفضل والكمال، وكان لها أخ قتله بعض رجال مملكتها، فاحتالت عليهم ودعتهم إلى وليمة أقامتها لهم فى قصر على شاطىء النيل مبنى تحت الأرض، فلما أخذوا فى الأكل أمرت بأن يفتح سد من النيل فانبثق ماؤه عليهم وأغرقهم

ومن هنا خاضوا فى التاريخ وحضارة الأمم القديمة، وأطالوا فى ذلك ماشاءوا وكان بينهم شاب أزهرى ممن يعنون بتطبيق العلوم الدينية على الفنون

العصرية، فقال لهم: مالى أراكم تروون قصص التاريخ بصورة جافة، وتصفون أحوال الأمم وصفاً مادياً لا نصيب له فى تصفية الروح وتطهير الأخلاق والتأثير فى العواطف؟ ويسوءنى جداً أن أرى كتب التاريخ التى بين أيديكم تنحو هذا المنحى فى تعليمكم وتهذيبكم، وإلا فليس الغرض من وضع التاريخ مجرد تنبيه الأذهان إلى الأسباب المادية من قيام الأمم وسقوطها. وإنما الغرض أيضاً تنبيهها إلى الأسباب الروحية والمؤثرات الأدبية.

قالوا ولكنا لا نعرف كتاباً فى العالم يترجم أحوال الأمم ويصف نهوضها وسقوطها على نحو ما ذكرت. قال: إنى أعرف سفراً جليلا فيه الكثير الطيب مما ذكرت.

ثم قال لهم: أرأيتم لو ذكرت لكم خبرَ شعبٍ من الشعوب القديمة كان يقطن البلاد الواقعة بين مصر والشام فى شمال طور سينا التابع اليوم للخديوية المصرية، وقد عاش هذا الشعب فى سنة ١٥٠٠ قبل المسيح أى فى زمن الملك (منفطا) الثانى أحد ملوك الدولة التاسعة عشرة وابن رعمسيس الثانى الذى يسميه اليونان (سيزوستريس)؟

هذا الشعب بلَغَ من الحضارة وسعة الحال (الرزق) واستكمال النعم مبلغا عظيما ثم دبَّ دبيب الفساد إلى عقائده وأخلاقه وأعماله، فأفرط فى عبادة الأصنام، وأفحش فى الجور والظلم والعيث فى الأرض، ولم يزل هذا خبره، وذاك مخبره، حتى انتابته الغِيرَ، وحلَّتْ به العِبرَ، وأصبح كأمس الذى عَبَر، وكان — قبل نزول هذا البلاء به — قام لهدايته بعض أبنائه، وبذل جهده فى تنبيهه وتحذيره، فلم يُغْنِ ذلك شيئا، قال هذا الابن الكريمُ لهم: دعوا الأصنام، وخلِّصوا عقائدكم من الأوهام، وأخْلِصوا

العبادة لله فلا تشركوا معه غيره ، هذا من جهة الاعتقاد. أما المعاملات بينكم فأحسنوها أيضا ، ولا تتلاعبوا فى البيع والشراء ، فإنى أراكم إذا بعتم شيئا نَقَصْتم منه واختزلتم بعض حقّ من يعاملكم بغياً وعدوانا .

إن هذا الزيغ فى الاعتقاد ، والبغى فى المعاملة ، يؤديان إلى فساد حالكم واختلال أمركم . وزوال النعم عنكم

إنى أرى النعم متوفرة فيكم ، وألوية السعادة تخفق على ربوعكم فإذا لم ترعوا النعم وتحافظوا عليها بالتزام الحق والعدل توشك أن تزايلكم ويحلّ بكم بعدها البلاء والشقاء .

ياقوم أعطوا الذى الحق حقّه كاملا وافيا ، فحرروا المكاييل والموازين ، ولا تدعوا فاسدى الذّمة يتلاعبون بها كيفما يشاءون ، ولا تكثروا من وضع الضرائب والخراج ورسوم الظلم ، فإن هذا العمل يضعف الهمم عن الكسب والسعى ، إذ أن العامل يعلم أنه لا يكون له من وراء عمله فى آخر السنة إلا القليل التافه ، وأن الرؤساء وأرباب الجاه يشاركونه فى كسبه فيَغنى وتضعف همته ، فإذا غلّت أيدى العمال عن العمل قلّت موارد الرزق ، فتكثر الهجرة وتخرب البلاد .

هكذا كان يقول لهم هذا المرشد الصالح . ثم من جهة ثانية كان ينهاهم عن العيث فى الأرض والإفساد فيها ، فقد كانوا يقطعون الطريق على السابلة ، ويُغير بعضهم على بعض نهباً وسلبا ، فلم يكن الواحد منهم يأمن فى سربه ، أو يؤمل أن يعيش إلى غده ، أو أن مافى يده من الملك يبقى له ، أو يخلفه إلى ولده . هذا هو دأبهم ، وكان ذلك المرشد يحذّرهم أشدّ تحذير من عواقب هذه الحالة ، وينبّههم إلى أن العدل ، والتزام الحق ، يزيدهم سعادة ويضاعف لهم النِعم . فإنهم مهما بلغوا منها ، فهناك نعم أخرى يمكن اجتلابها ،

والحصول عليها بإحكام أمر المعاملة والتزام القسط ، وشمول العدل بين أبناء أمتهم ، وكان يقول لهم : إنى أنا أو غيرى لا يمكننا أن نحفظ عمرانكم من السقوط والاضمحلال مادام سوس الفساد والاختلال ينخر عظامه ، فاسمعوا وأطيعوا .

ولكن هل سمعوا وأطاعوا ؟ كلا وإنما أجابوه جواب سخرية واستهزاء : فقالوا يافلان إنك تُسمعنا نغمةً جديدة لم نكن نعهدها منك من قبل ، وإنا نراك كثير الخشوع والصلاح والتقوى فهل خشوعك وإخباتك هذا هو الذى يُحَرِّكُ علينا ، فتدعونا إلى تغيير عقائدنا ، ونبذ تقاليدنا التى ورثناها عن آبائنا وأجدادنا ؟ وهل هو الذى يأمرك أن تَتَدخَّلَ فى شؤوننا الاقتصادية ، ومعاملاتنا المالية ، فتختطَّ لنا خططاً جديدة لا عهد لنا بها من قبل ؟

ولم يكتفوا بهذا الردّ القبيح عليه . بل ازدادوا فى التهكّم به : إذ قالوا له : آنتَ العاقل الناصح المرشد ؟ يعنون أن العاقل لا يَتدَخَّلَ فيما لا يعنيه من شؤون غيره ونقد عاداته وتقاليده .

على أن تهكّمهم هذا لم يثن عزيمته ، بل إنه استجمع همته ، وصمَّم على بلوغ الغاية فى مجادلتهم ، فقال لهم : أخبرونى ياقوم هل تحسبون أنى أقول لكم ما أقول لمجرد الهوى ، أو أنه لا حجة لى ولا برهان على ما أدعوكم إليه من وجوب الارعواء ؟ إنى واثق من صدق قولى ، وثبوت حجتى ، ثم فكّروا فى أمر آخر : وهو أنه لا مصلحة لى من وراء نصحكم : فلا أطمع أن تعطونى مالا ، أو تهبونى عقارا ، فإن الله تعالى رزقنى الرزق الحلال الطيب ، فما كان لى أن أطمح إلى مال السحت ، فأتوصل إليه بالتدخل فى شؤونكم ، وادّعاء إصلاح أمركم . حتى إذا ملأت رُدْنى بالصلات والأعطيات

سكت وانكفأت على عقبي كلا ياقوم لاتظنوا هذا فيّ ولا تحسبوني أبغي المال وحطام الدنيا من وراء نصحكم وتحذيركم ، وإن بقيتم في ريب من أمري فانظروا ، هل أنهاكم عن شيء ثم أرتكبه ؟ وهل أحضّكم على خير ثم أتجنّبه ؟ وإنما أنا أول من يدع ما أنهى عنه ، وأفعل ما آمر به ، وهذا دليل على صدق قولي . وإخلاصي في عملي ، وأطلبُ من ربي المعونةَ لا منكم ، وإليه أرجع في أمري إليكم ، فأصغُوا إليّ ، وأحسنوا الظنّ بي .

ثم أراد أن يُثير الخوف في نفوسهم بتذكيرهم ماجرى في الأمم قبلهم . مذ تجبّرت نفوسهم على العناد ومخالفة أوامر الله ، فحلّ بهم الشقاء والدمار ، وسَلَكَ في التعبير عن ذلك مسلكَ الحكيم الواقف على أسرار النفوس ، ومناشيء الأخلاق ، فقال : ربما عددتموني عدوّاً وخصماً لكم ، فتقيمون من هذه العداوة حاجزاً وسداً يحول بينكم وبين الإصغاء إلى نصحي ، فيؤدي ذلك إلى نزول البلاء بكم ، كما نزل بالأمم التي كانت قبلكم ، بل إن هناك أمةً على مقربةٍ منكم في ديارها ، ولم تنسوا بعد ماكان من هلاكها ودمارها .

كلا ياقوم أنا لست عدوّاً ، وإنما أنا من أبنائكم ، وأعزّ صديق لكم ، فاستغفروا الله من نيّة سوء تخالج قلوبكم ، وارجعوا إليه في طلب التوفيق منه ، فهو سبحانه ـ خلقكم فكيف لايرحمكم ويحبكم ، والرحمة والحب مدعاة الغفران والتوفيق .

لم يدع هذا المرشد الغيور أسلوباً من أساليب النصح إلا أفرغه في نفوس هؤلاء القوم ، لكنه كان كأنه يصبُّ نيترات الفضة على معدن صُلب قاس . فكان ذلك المعدن يغلي ويلتهب .

وكانوا يقولون له : إننا ياهذا لا نفهم كلامك ، ولا نريد أن نعمل

بنصائحك ، وإن وسكوتنا عنك إلى هذا الحد ليس خوفاً منك : فإنك ضعيف الجانب ، خامل القدر ، منحطّ المقام ، فنى إمكاننا أن نبطش بك ، لكن لك عصبية من قومك وذوى قرابتك ، تحول بيننا وبين إيذائك . والفتك بك ، أفهمتَ الآن ؟ أنتَ لست بذى منزلة فى قلوبنا ، ولكنّ رهطك وقومك هم الذين نخشى بأسهم ، ونحسب حسابهم .

فقال لهم صاحبهم متعجباً متأثرا : ماذا أصاب عقولكم ياقوم حتى تجيبونى بهذا الجواب ؟ أنا أقول لكم : إنى على حجة ويقين من دعوتى لكم ، وإنى أستمدّ المعونة والنصرة من الله ، ولا أطلب التوفيق إلاّ منه . فلا تتأثّرون لكلامى ، ولا تخشعُون لتذكيرى ، ولا تخافون الله الذى خلقكم ، وأمدكم بصنوف النعم وهو قادر على إهلاككم وسلب النعم منكم ، لكنكم تخافون بطشَ قومى ، وتحذرون صولتهم ، ورفعتموهم إلى مقام جعلتم الله دونه ، وسمَوْتم بهم إلى منزلة أحللتم خالقكم أحطّ منها .

لاجرم أنه ليس بعد هذا عناد ، وغلظ أكباد وإن الإله الذى تستخفون به إلى هذا القدر عالمٌ بكم ، وواقف على جميع شؤونكم ، أما وقد صرّحتم بما صرحتم به من الجحود ، وتظاهرتم بما تظاهرتم به من الاستخفاف فما عدت آمل أن ترعووا عن ضلالكم ، أو تثوبوا إلى رشدكم . فابقَوا على ما أنتم عليه ، وابذلوا كل مافى وسعكم للإيقاع بى ، وأنا كذلك أبقى على ما أنا عليه من الثقة بالله وبوعده ، فسيأتى يوم تعلمون فيه : إن كنت أنا الكاذب المخادع أو أنتم المكابرين المغرورين .

وهكذا انتهى الحوار بين الرجل وقومه ، ثم تركهم لشأنهم بعد أن يئس منهم ، فتمادوا فى غيهم وضلالهم ، حتى نزلت بهم الجوائح ، التى من شأنها

أن تستأصل الأمم الباغية، فأهلكتهم، وأخلت منهم ديارهم، فكأنهم لم يقيموا فيها، ولم يقضوا عيشاً رغيداً فى ربوعها، وناداهم هاتف من الملأ الأعلى: هذا جزاء من يعصى الله، ويدابر سننه الحكيمة، التى فطر الكون عليها، فإنه يهلك لامحالة كما هلك الأولون، وصائر إلى حيث يصيرون.

وما انتهى الحديث بالشاب الفاضل إلى هنا حتى شخصت إليه أبصار الحاضرين، وسألوه متعجبين من أين رويت هذه القصة التاريخية الغريبة فى موضوعها، الجديدة فى أسلوبها، فإننا لانعرف كتاباً يسرد أخبار التاريخ على هذا الأسلوب العجيب الذى ذكرته، فقال: بلى! إنكم بقصة شعيب ومدين لعارفون، ولكنكم عن القرآن ونصائحه معرضون!

الصحيفة المختومة [1]

قد تُصاب الأمم فى بعض أدوار حياتها التاريخية بأمراض اجتماعية تشرف معها على الفناء . أو يتداركها الله برحمته ، فيزحزحها عن موقفها الخطر . ثم يبوّؤها من الدين والعلم والأخلاق مكاناً عليّا ، وهذا شأن العرب قبل الإسلام : وقت أن فشا الجهل فيهم ، وغلبت شياطين الفتنة عليهم ، حتى أنقذهم الله بالإسلام ، فانقشع عنهم الظلام ، وأصبحوا سادة الأنام .

فمن أعضل الأمراض الاجتماعية التى كانت مصابة بها الأمة العربية فى عهد الجاهلية مَرَضُ (إنا وجدنا آباءنا) أعنى مرض التقليد لآبائهم فى الشر والإثم والمنكر ، وكانوا كلما نصح لهم ناصح ، وأرشدهم إلى الحق مرشد بالدليل الواضح ، أجابوه بقولهم : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، فقال تعالى ناعياً عليهم ، مزيّفاً حجتهم : (أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ ؟) أى : أو لو كان ذلك العمل الذى ورثتموه عن آبائكم منافياً للعقل بمعزل عن الهدى والحق :

كان القوم قبل الإسلام يأكلون الدوابَّ الميتة ، والجيف المنتنة ، فنهاهم الإسلام عن ذلك ، مبيّناً لهم ضرره ، ووجوب العدول عنه ، إلى أكل الذبائح الزكية ، فكانوا يدافعون عن فعلتهم الممقوتة بما ذكرنا من تقليد آبائهم ، ثم يحتجون بدليل آخر عقلى غاية فى الغرابة : وهو أن الذبيح

(١) كتبت سنة ١٩١٥م و١٣٣٦ هـ

المزكّى أماته البشر ، وأما الحيوان الميّت فقد أماته الله ، وشتّان ما بينهما : فإن الذى أماته الله ينبغى أن يكون أهنأ وأمرأ مما أماته البشر !!

وكان يعمد أحدهم إلى ابنته الصغيرة ، وقد أحاطت بها أمّها وخالاتها يودعنها ، ويبكين عليها ، فينتزعها من بين أيديهنّ بكل قسوة وغلظة ، ثم يذهب بها إلى الصحراء ، فيحفر لها حفرة عميقة يدهورها فيها ، ثم يهيل عليها التراب ، فتموت المسكينة أبشع ميتة ، وإذا سئل عن هذه الموؤدة ماذا صنعت ؟ وبأى ذنب قتلت ؟ أجاب بدليل التقليد لآبائه ، وبأن فى بقاء هذه الابنة حيّة تضييقاً لمعاشه ، أو أنها تكون أحياناً سببا للحوق العار به .

وتلتفت أيها القارىء من جهة ثانية إلى مراعيهم وحدائقهم ، فتجدها ملأى بالأنعام السائمة ، والمواشى السارحة ، وهناك أكداس من الحبوب والزرع والثمر والزبيب ، تقول ولمن هذه؟ ولماذا لا تحملون فيها نصيباً لبناتكم بدل وأدهن أحياء ، وحرمانهن من العيش مع وحش الفلاة وطير السماء ؟ ؟ أجابوك بأن هذه الأنعام والزروع والثمار محرّمة علينا ، نَذْر لآلهتنا وأصنامنا ، وليس لهم برهان على هذا التحريم ، وإضاعة المال ، وترك الانتفاع به سوى قولهم بوجوب متابعة آبائهم ، والنسج على منوالهم

لا جرم أن العناية الإلهية ما كانت لتدع قوماً فى هذه الغفلة والضلالة حتى ترشدهم إلى السداد ، وتهديهم سبيل الحق والرشاد .

وهذا ما كان من أمر بعثته صلى الله عليه وسلم وإنزال الكتاب عليه ، وفى ضمن ذلك الكتاب (صحيفة مختومة) خصّص فيها الحوار مع أولئك الجامدين على تقاليد آبائهم الموروثة ، وطرائقهم الممقوتة ، من مثل ما ذكرنا

من أكل الميتة ووأد البنات ، وتحريم أنعامهم ، ومحصولات أراضيهم ، وتقديمها قرابين لأصنامهم ، مما لم يأذن به الله ، ولم يُنزل فيه سلطانا .

تقول تلك الصحيفة لهم : بئسما حلّلتم وحرمتم على أنفسكم ، وشد ما ذهلتم عن الحق والاعتدال في مصالحكم ، وما تنتظم به أمور دنياكم ، وإذا أردتم الحلال والحرام الموصلين إلى سعادتكم وهنائكم ، وارتقاء عمرانكم ، واجتماعكم ، فتعالَوا أتلُ ما حرم عليكم ربكم :

(١) ألاّ تُشركوا به شيئا : فإنكم إذا أشركتم مع الله آلهاً آخر توزعت همتكم بين الآلهة ، واضمحل تصميمكم وثباتكم ، فتنقطعون دون الوصول إلى مقاصدكم ، وهذا كمن يبغي أمراً دنيوياً ، وقد اشتبهت وسائله عليه ، وتعدّدت طرق نيله أمام عينيه ، فإنه لا يزال في حَيرةٍ وتردد من أمره وسعيه ، حتى يقع على الخيبة والخذلان في آخر الأمر .

(٢) وبالوالدين إحسانا : فإن الإحسان إليهما عنوان الوفاء ، ومكارم الأخلاق ، ومن أساء إليهما مع عظيم حقهما ، كان إلى غيرهما من الخَلق أشدّ إساءة ، وأكثر إجراما ، وأين النجاح والفلاح في هذا العالم من المسيئين والمجرمين ؟

(٣) ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم : (من إملاق) أي من خوف فقر ، فإذا كان رزق أولئك البَنات الموؤدات على خالقهن وهو سبحانه الكفيل به والميسّر له ، فما معنى إجرامكم بقتلهن وإقدامكم على هذه الفَعلة المنكرة ؟

(٤) ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن : أي دعوا الفسق والفجور والزنا وشرب الخمور في السرّ ، كما تدعونه في العلن ، فإن الله لا يخفى عليه

أمر ، وهو سبحانه عليم بالسرائر ، كما هو مطلع على الظواهر .

(٥) ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق : فإن قتل القاتل رادع لغيره عن ارتكاب مثل فعله ، وهذا نافع مفيد فى عمرانكم ، مصلح لشؤون اجتماعكم . أما تقتيل بعضكم بعضاً بغير الحق . فإنه والعياذ بالله من أكبر الآثام المفسدة للنظام العام .

(٦) ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن : أى إلا لأجل تثميره ، وتنميته فى ضروب التجارة ، ووجوه الربح ، أما تناوله والانتفاع به تعدّياً من دون مقابل فإنه مفكك للروابط ، مثير للعداوات .

(٧) وأوفوا الكيل والميزان بالقسط : أى بالعدل ، ولا تكونوا كبعض الباعة الذين يتّخذون وزنتين : فيزنون تارةً بهذه ، وطوراً بتلك ، والمشترون عن خيانتهم غافلون .

(٨) وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى : هذه الوصية للحكّام ، أو لكل إنسان ، فالواجب قول الحق والحكم بالعدل من دون تمييز بين الأشخاص ، ومن دون محاباة للقريب على الغريب ، ولا بخس حق العدوّ من أجل جرّ النفع إلى الصديق الحبيب .

(٩) وبعهد الله أوفوا : يعنى إذا عاهد بعضكم بعضا فليوف بعهده ؛ فإن الوفاء بالعهد من الإيمان ، وقد نسب هذا العهد إلى الله فقيل (عهد الله) تفخيماً لشأنه ، وتعظيما لحرمته .

(١٠) وأن هذا صراطى مستقيما فاتبّعوه ولا تتبعوا السُّبلَ فتَفَرّق بكم عن سبيله : هذه الوصية الأخيرة بمثابة قولنا : أن ما ذكر من الوصايا التسع المتقدمة واجبة الإجراء ، لازمة التنفيذ منذ يوم أنزلت عليكم

معشر البشر ، فاعملوا بها لوضوح أمرها ، وتحقيق فائدتها ، ولا تتبعوا الطرق الأخرى المهلكة ، بداعى أنكم ورثتموها عن آبائكم ، فإن اتباعكم لها يقودكم إلى التفرق والضلال ، والبعد عن سبيل الحق الذى هو سبيل الله .

هذه هى (الصحيفة المختومة) وهذا ما تضمنته من الوصايا التى يصح لنا أن نسميها (وصايا الإسلام العشر) وسماها سيدنا ابن عباس حبر الأمة (الآيات المحكمات) أى البينات الثابتات اللواتى لايعتريهن تغيير ، ولا يمكن أن يطرأ عليهن تحويل أو تبديل

أما الربيع بن خيثم فإنه قال يوماً لصديق له :هل أدلك على صحيفة عليها خاتم محمد ؟ قال نعم ، وفى رواية أن الربيع أشرف يوماً على أصحاب له فقال لهم : هل أقرأ عليكم صحيفة من رسول الله ، لم يُفَضَّ خاتمها (أى لم يفضض ولم يكسر عنها خاتمها) قالوا نعم ، قال : (تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا) إلى آخر الوصايا العشر التى سردناها فى هذا المقال وكأنه يعنى بكون هذه الصحيفة ما زال عليها الخاتم : أن وصاياها لا تزال غضة طرية ، بحيث تصلح فى كل زمان ومكان ،لترقية العمران ، وفائدة نوع الإنسان ،

(١)

قواعد العمران

« من بين آيات القرآن »

إذا تجرد الإنسان هُنيهةً من جلباب التقاليد . وترك التصديقَ والإذعان جانباً . ونظر إلى القرآن ككتاب غامضٍ خبره . مجهولٍ مصدره . وأراد أن يقرأ فيه . ثم يحكم عليه . ويأخذ عبرة منه . فماذا يرى؟ وبماذا يحكم؟

أخذ ذلك الإنسان المتجرد القرآن ، وماهو إلا أن وقع نظره على أوائل سورة الإسراء فرأى عجباً : رأى من ضروب الوعظ والتذكير ، وأفانين التربية والتعليم ، وأصول الآداب وقواعد الاجتماع ، مُفرغاً ذلك كلَّه فى أساليبَ عالية ، وحُللٍ بالفصاحة والبلاغة زاهية — ماجعله يكبر الأمر ، ويتساءل ماذا عساه يكون السر ؟

كتابٌ وجد منذ أربعة عشر قرناً فى بلدٍ منقطع عن العمران ، محجوبٍ عن أشعة العلم والعرفان ، بين قومٍ أميين ، قَساة جاهليين . ثم هو يتضمن ما أشرنا إليه لجديرٌ بالتعجّب منه ، حقيقٌ بالتفكير فيه .

تضمَّنت أوائل سورة الإسراء ما تضمَّنت ، وهى ست صفحات فقط ، فماذا تتضمن إذن بقية صفحات ذلك الكتاب ، وهى زهاء (٨٧٠) صفحة

نحن لا نحيل القارىء الكريم إلى أمرٍ بعيد عن القياس ، ولا إلى غيبٍ لا يدخل تحت متناول الحواس ، وإنما نحيله إلى عِيان ومشاهدة واختبار .

---

(١) كتبت سنة ١٩١٦

« الإسراء والمعراج »

(من مزايا صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم)

يصح نعت القرآن بأنه أقدس رسالة . أتت من أقدس مقام ، بواسطة أقدس إنسان ، وهو محمد بن عبدالله الرسول فى تبليغ تلك الرسالة إلى الخلق .

وقد افتتح مرسلُ تلك الرسالة إحدى سورها أعنى سورةَ الإسراء — ببيان منزلة ذلك الرسول ، ليزداد الناس ثقة به ، وحباً له ، وحرصاً على تلقّى الرسالة عنه ، فقال :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريَه من آياتنا »

إطلاع الله لذلك الرسول على آيات الكون وأسرار الخليقة ، هى المنزلة الرفيعة التى امتاز بها عن سائر بنى البشر ، فالقصد من الآية إثبات تلك المنزلة له

أمّا إنّ رحلة « الرسول » فى الاطلاع على تلك الآيات كان بروحه الشريفة أو جسده المبارك ؟ فهذا لا نكلّف الإيمان القطعى به ، ما دامت الآية ليست دلالتها على معناها بقطعيّة . ولذلك اختلف العلماء بل الصحابة فى الإسراء والمعراج :

أسرى بروحه أو بجسده ؟ وكيف كانت كيفيّته ؟ وعلى أيّة حالةٍ وقعت غدوته وروحته ؟

هذا من عالم الغيب لا نكلّف به تفصيلاً ، مادمنا مؤمنين بالغرض منه

إجمالاً : ألا وهو الإيمان بأن الله أطلع نبيه على عالم الملكوت ، ولنضرب لذلك مثلاً :

نسمع أن أهل طرابلس الغرب قاموا اليوم لمناجزة إيطاليا ، ونعلم أن حكومة الآستانة ذات الدهاء والقوة هى التى أمدتهم بالضباط والسلاح والذخائر فتمكنوا بذلك من القيام فى وجهها .

فيقول قوم : وكيف أوصلت حكومتنا تلك الإمدادات إليهم : بالبرّ عن طريق مصر ؟ أو بالبحر على ظهر السفن ، أو بالهواء على متون الطيارات ؟

ولكن هل من المعقول أن نوسعَ مسافةَ الخلف بيننا فى هذه المسألة، ونكثر من اللغط فيها ؟ وليس فى ذلك من فائدة لنا ، وإنما الفائدة هى فى أن نثق بحكومتنا وفى أن لديها من الوسائط ما يكفل إيصال القوات إلى إخواننا السنوسيين بطريقة حكيمة مأمونة .

يستبعد قوم أن يكون الإسراء حصل بجسده الشريف ، ولكنى أقول إنه ربما كان هو الواقع ، كما يستبعد قوم أن يكون إمداد السنوسيين بطريق البحر مع أنه ربما كان هو الواقع أيضاً ، بل ربما كان بواسطة الغوّاصات ، التى تنساب تحت مياه البحار الطاميات .

كيف أسرى بجسده صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ؟ وكيف يُتصوَّر هذا ؟

ولكن قل لى — ولنفرض أنفسنا عائشين منذ مئات من السنين — كيف يمكن أن يطير الإنسان مسافة أيام بساعة من الزمن ؟ لو قلنا ذلك لأهل القرون الأولى أما كانوا يستبعدونه ، ويعدّونه من المحالات العقلية ؟

وكذلك إسراء النبى إذا استبعده العقل وعجز عن تصوره ، ينبغى له أن

لا يُنكره ولا يُحيل وقوعه ما دام عند خالق هذا الكون من النواميس الخفية مالا تحيط به العقول .

« الاعتبار بالأمم الغابرة »

عرفنا منزلة « الرسول » حامل الرسالة ، ولنقرأ الآن الرسالة نفسها أو بعض آيات منها أعني أوائل (سورة الإسراء)

أول ما فعلته هذه الآيات أنها حوّلت نظرنا إلى أمة تقدمتنا . كان لها في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية شأن عظيم ، وقد ذاقت حلوَ الزمان ومرَّهُ بحيث أصبحت أجدر الأمم القديمة بأن يُتعظ بها ، ويُعتبر بأحوالها ، ألا وهي الأمة اليهودية :

« وآتينا موسى الكتاب ، وجعلناه هدى لبني إسرائيل : ألا تتخذوا من دوني وكيلاً . ذرية من حملنا مع نوح ، إنه كان عبداً شكوراً ، وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتُفسدنّ في الأرض مرتين ، ولتعلُنّ علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولاً . ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيراً ، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبّروا ما علوا تتبيراً ، عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا »

قصّت علينا هذه الآيات من خبر اليهود ما فيه مزدَجر ، وتحذير لنا أن يصيبنا مثلما أصابهم ، فقالت : إن الله أعطاهم التوراة فيها هُدى ، وحذّرهم

مخالفة أوامره ، واستدبار سننه ، وأثبت لهم أن هذه المخالفة تؤدى إلى غلبة عدوّهم عليهم ، واكتساحه بلادهم ، فاليهود غفلوا عن سنن الكون ، وتناسوا أمر الله . فسلّط عليهم بختنصر ، نبوخذنصر ، ملك الأشوريين ، فأنزل بهم البلاء ، ثم كشف ذلك عنهم على أمل أن يكونوا تابوا وأنابوا ، فيعودوا للعمل بالتوراة ، ومراعاةِ سُنَنِ الوجود والاتعاظ ، بما كان من إدلال عدوهم فى المرة الأولى لهم — فلم يفعلوا شيئاً من ذلك وعادوا لما نهوا عنه ، فجاءهم الرومانيون ، وأوقعوا بهم ، واضطهدوهم ، وأذلوهم ، كما قال لهم ربهم « وإن عدتم عدنا » أى وإن عُدتم للمخالفة عدنا لتسليط عدوّكم عليكم .

هذا ما كان من أمر اليهود فى سابق عهدهم : فوعظنا الله نحن المسلمين بهم ، وحذّرنا أن نخالف أوامره الإلهية ، وتدابير سننه الكونية ، فيُصيبنا مثلما أصابهم

ولا ريب أن القدوة عامل من أقوى عوامل التربية ، وهى فى تربية الأمم مثلها فى تربية الأفراد ، فإن أحسنَ طريقةٍ يتخذها المربّى فى تربية الناشىء هى أن يصف له أعمال رجال الفضيلة فيقتدى بهم ، وأعمال رجال الرذيلة فيتجنب عملهم ، وهكذا الأمم فى طور تكوّنها : يجب أن تستفيد من أمم التاريخ فتقتدى بهذه ، وتحيد عن عمل تلك .

سلك القرآن الكريم فى تربيتنا معشر المسلمين هذا الطريق من التربية : فترونه يقصّ علينا أخبار الأمم السالفة ، وما جرى لها لنستفيد من ذلك عظة وعبرة .

اليهود فى عهد البعثة المحمدية كانوا مضرباً للأمثال ، وموضعاً للشفقة عليهم ، والتعوّذ إلى الله من المصير إلى مثل حالهم ، ولكنهم اليوم عادوا

فلمّوا شَعثهم، ورأبوا صدعهم، وأخذوا يستفيدون من تجارب الأمم غيرهم. ومن عِبَر التاريخ التى تُستنتج من حوادث من تقدّمهم.

انظروا إليهم تجدوهم فى حالة غير حالتهم الأولى.

لماذا انقلب حالهم وغير الله ما بهم ؟

ذلك لأنهم غيّروا ما بأنفسهم.

سلكوا إلى الفوز فى هذه الحياة من طريقه الطبيعى الذى طالما تنكّبوه فى سالف عهدهم.

سلكوا سبيلَ الحياة الاجتماعية وهم مسلّحون بثلاثة أمور:

(١) تقوية روح التضامن بينهم

(٢) إصلاح التربية من طريق العائلة والمدرسة

(٣) توفير الثروة من طريق علم الاقتصاد

هذه القوى الثلاث هى عماد الأمم، وأكبر العوامل فى نهوضها. فيجب علينا — معشر المسلمين — اليوم أن نوفر فينا هذه العوامل الثلاثة، لأن الحكمة ضالتنا كما قال نبينا: وإلا كان أمرنا إلى خسار، وسعينا إلى تبار.

وهذا مصداق الآية الكريمة «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»

غير أن القرآن الذى أعطانا نحن المسلمين هذا الأصل فى نهوض الأمم وسقوطها — وهو أن التغير الاجتماعى ناشىء عن التغير الأخلاقى — أعطانا أصلا آخر فى هذا المعنى وهو «ترك اليأس» منذ قال: «إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون»

هذه أسباب النهوض منبثة حوالينا ، وطرُق العزة والغلبة ممهدة أمامنا . فلنسلك هذه الطريق بصبر وثبات ورجاء كما أمر الله ، فلا جرم أن نكون بعد ذلك من الفائزين .

(التربية النفسية)

بعد أن فهمنا من آيات اليهود لزوم الاتعاظ بما جرى للأمم قبلنا ، نرجع إلى بقية الآيات الأوائل من سورة الإسراء فنجد فيها مواعظ وحكماً وآداباً اجتماعية أخرى .

من ذلك التربية النفسية :

(الأصل الأول) فى هذه التربية أن يعتقد المرء بأن كل ما يصدر عنه — من قول أو عمل أو فكر — له تاثير فى أخلاقه وسعادته ومستقبل حياته : إنْ حسناً فحياته سعيدة ، وإنْ سيئاً فحياته شقيّة . وإذا علم المرء هذا كان جديراً أن لا يقول إلا حسناً . ولا يعملَ إلا حسناً ولا يفكر إلا حسناً :

قال تعالى فى آيات سورة الإسراء « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها »

— ثم قال — « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها »

(والأصل الثانى) فى التربية النفسية « حياة الضمير وصحة الوجدان فى نفس المرء » : فمن كان ذا ضمير حيّ ، ووجدان صحيح ، كان على نصيب وافر

من صحة الحكم والقصد فى الأعمال . وسعادة الحياة . وهذا معزى قوله تعالى فى آيات سورة الإسراء : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، طائر الإنسان عمله الذى صدر عنه فهو منوط به متصور عليه - كما مر فى آية إن أحسنتم . . وآية ومن اهتدى . . - فأعمالك التى تصدر عنك أيها الإنسان ، يكفى فى تمحيصها ومعرفة صوابها من خطئها ، أن ترجع إلى نفسك ، أى ضميرك أو وجدانك كما يقولون اليوم ، ثم تقرأ ما انطوى فيها من الهواجس والخواطر والأميال والاعتقادات فإذا قرأت ذلك كله فهمت كيف صدرت عنك الأعمال حسنة أو قبيحة ، وكيف أصبحت بسببها سعيداً أو شقياً .

نفسك وحدها ، هى نعم الحكم فيما إذا عرضت الأعمال ، ونصب الميزان للفصل بين الحق والضلال .

فالواجب علينا فى تربيتنا النفسية إذن أن نقوّى أو نصلح فينا الضمير والوجدان الذى يسمّيه القرآن « النفس » أو « النفس اللوامة » نصلح فينا ذلك لنعرف كيف نقول الصدق ، ونحكم بالحق .

(والأصل الثالث) فى التربية النفسية « الصبر والثبات والتجلد » وهو ما يسمونه اليوم « قوة الإرادة والشجاعة الأدبية » وقد نهانا الله فى آيات الإسراء المذكورة عن اليأس والقنوط فقال : « ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً » أى يا عجبا للإنسان ! كيف يعجل بالسخط على نفسه والبراءة منها وتمنّى الشر لها إذا لم تفز (أى النفس) فى بعض

المواطن ، أو لم تنجح عند ممارسة عمل من الأعمال . كلا ، لا ينبغى أن يسخط ولا أن يدعو على نفسه بالشر والهلاك ، كأنه يدعو لها بالخير . بل عليه أن يصبر ويتجلد ، ويقوّى إرادته ، فيعيد الكرة على العمل الذى لم ينجح فيه ، فيتم له الفوز والغلبة .

فبالله قولوا إذا لم يكن هذا معنى الآية فما هو معناها ؟ وإذا لم تكن قوة الإرادة والصبر أساس السعادة فى هذه الحياة فما هو أساسها ؟

(الأصل الرابع) فى التربية النفسية « كبر النفس وعلوّ الهمة » كما قال صلى الله عليه وسلم : « علو الهمة من الإيمان » فلا يرضى المؤمن لنفسه بالدون من شؤون هذه الحياة ، بل يقتحم المصاعب فى نيل المناصب ، ويكابد العظائم ، فى اكتساب المغانم .

وأىّ مناصب ومغانم ؟ هى أن تكون أمته سعيدة ، فيكون سعيداً بها ومعها . هى الفضائل والكمالات والأخلاق العالية والمظاهر السامية ، فيكون المرء بها رجلا عظيما ، وعبقريا كريماً .

إذا كثر أمثال هؤلاء العظماء فى أمة من الأمم ارتقت وعزّت ، وإن قلّوا أو فقدوا تدهورت وذلت ، والله سبحانه وتعالى يُعطى المرء من هذه المظاهر العالية على حسب سعيه ، وما طلبه بلسان حاله (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) وقد أمره أن يسعى فى نيل الكمال الإنسانى بأبلغ أسلوب فى آيات (سورة الإسراء) فقال تعالى :

« من كان يريد العاجلة ـ الخُطّة التى يسهل تناولها والمنزلة الناقصة ـ عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد . ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً » :

ـ أى تكون عاقبة ما أراد التعجيلَ به إلى خُطة الدون ، ثم البلاء والشقاء الأبدى ـ ومن أراد الآخرة ـ وهى الحياة الكاملة والسعادة الشاملة ـ وسعى لها سعيها وهو مؤمن ـ واثق بالظفر ـ فأولئك كان سعيهم مشكوراً .

(الأصل الخامس) من أصول التربية النفسية التى علّمنا إياها الله فى آيات سورة الإسراء : « إعمال العقل فى ما يعرض عليه من المسائل العلميّة والكونيّة ، فلا يجوز للمرء تعطيل عقله ومشاعره وتصديق كل وهم يُلقى عليه فقال تعالى فى آيات سورة الإسراء :ـ ويا ما أسمى حكمته فيما قال ـ « ولا تقفُ ما ليس لك به علم : إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولاً » أى لا تتبع الظنّ فتصدّق ما لا يلتحم مع العلم اليقينى بل استعمل عقلك وسمعك وبصرك : فإذا أهملتها وعطّلت العمل بها سُئلت عنها كلها يوم القيامة . فإذا قال لكَ ربك يومئذ: لماذا اعتقدت كذا ؟ أو كنتَ تذهب من المذاهب والآراء إلى كذا ؟ فقلت له : يارب قيل لى كذا ، وقالوا لى كذا فتابعتهم . فيقول لك: وأين عقلك وسمعك وبصرك التى قد وهبتُها لك؟ ولماذا لم تستعملها وتستهدِ بها ؟ هل أعطيتك إياها لتهملها ؟ أهكذا حق النعمة وشكرها ؟

لا جرم أن تقوم إذ ذاك الحجة على هذا المقلّد ، فيقذف به فى هوة الشقاء . أنقذنا الله منها بفضله وكرمه .

التربية العائلية

الأمة تتألف من العائلات ، كما أن الجدار يتألف من الأحجار . فإذا

كانت الأحجار متينة قوية محكمة الوضع ، كان الجدار ثابتاً حسن الوضع ، والعكس بالعكس . كذلك الأمة إذا تألفت من عائلات راقية فى نظامها وترتيبها ونظافتها وآدابها وأخلاق أفرادها كانت الأمة فى أعلى درجات الرقى ، والعكس بالعكس .

والعائلة تتألف فى أول أطوار تكوّنها من أبٍ ، وأمّ ، وابن .

والابن الأول هو حجر الزاوية فى أساس البيت : فإذا كانت أخلاقه حسنة ، وآدابه راقية ، وبارّاً بوالديه تبعه إخوته وأخواته وانتظم حال العائلة . وإلا فسدت الحالة ، واختل النظام .

على أن الابن إذا كان عاقًّا لوالديه : يسىء عشرتهما ، ويوصل الأذى إليهما ، كان جديراً أن يفعل ذلك مع خُلطائه ومعاشريه الآخرين ، وهذا كاف فى سقوطه وتعاسته . قال تعالى فى آيات سورة الإسراء . « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربيانى صغيراً » ومعنى هذه الآيات ظاهر لا يحتاج إلى تبيان .

ومن التربية العائلية التى جاءت فى آيات الإسراء « رحمة الوالدين وعطفهما على ابنهما » فلا يقسوان عليه ، ولا ينظران إليه كأنه متاع لاقيمة له فى الوجود . وإنما هو حرّ مستقل فى نفسه ، يكلّف أبوه الإنفاق عليه وتربيته حتى يبلغ أشده ثم يسرّحه فى هذا العالم ليسعى لنفسه ولعائلته ولوطنه .

وقد نعى الله على الآباء القُساة صنيعَهم فقال فى آيات الإسراء : « ولا تقتلوا أولادكم خشيةَ إملاق نحن نرزقكم وإياهم إن قتلهم كان خِطئاً كبيراً » .

فهذه القسوة أواليأس من حصول الغنى هومن أسباب خراب العائلات وتنغيص عيشها

ونحن اليوم لا نقتل أولادنا قتلا حقيقياً ، وإنما نقتلهم قتلا معنوياً : نهمل الإنفاق علىَ تربيتهم وتعليمهم فيكونوا على حالةٍ من الجهل والشقاء الموتُ الحقيقى خيرٌ منها .

فتربية الأولاد ، والرأفة بهم ، وعدم قتلهم قتلا حقيقياً أو معنويا هو مما أمرنا الله به وحضّنا عليه فى آيات الإسراء .

ومن التربية العائلية ، استحكام ملكة الاقتصاد فى نفوس أفرادها ، الآيتان السابقتان : آية برّ الوالدين ، وآية عدم قتل الأولاد ، تحضّاننا علىَ استكمال الروح الأدبى فى العائلة ، أما آيات الاقتصاد التى تضمنتها آيات الإسراء فهى تحضّنا على استكمال الروح المادى ، أى على توفير الثروة ، والاهتداء إلى أحسن الطرق فى استثمارها وتحصيلها ، والعائلة التى لا تعرف كيف تستثمر ثروتها . أو تزيد فيها ، أو لا تعرف كيف تنفق هذا المال فى سُبُله المشروعة وطرقه القانونية ، وتقابل الصرف بالخرج على أصول « البودجة » يوشك أن تنفق أموالها وتُضيعها بالتدريج ، أو تخزنها فى « البنوك » دون أن تستفيد منها ، ويكون شأنها شأن من أعطاه الله عينين ليبصر بهما ، فهو قد أغمضهما أو وضع عليهما عصابة فلم يعد يرى ولا يبصر .

فمثل هذا الرجل كيف يمكنه أن يعيش ؟ وذلك البخيل الذى يقتّر على نفسه وعياله والمحتاجين المتصلين به كيف تطيب له الحياة ؟ قال تعالى فى آيات الإسراء : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » .

« الحياة الاجتماعية »

آيات سورة الإسراء على قلتها حافلة بالقواعد العمرانية ، والأصول المدنية ، التى يتوقف عليها بناء الجماعات البشرية .

فالبشر ماداموا مدنيّين بالطبع ، وما داموا فى حاجة إلى أن يعيشوا عيشة اجتماعية : كانوا محتاجين إلى هذه الأحكام والأصول التى جاءت فى آيات الإسراء ، وها نحن نسرد تلك الآيات سرداً من دون شرح ولا تعليق ، خوف التطويل والتضييق .

(١) « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً »

وهذا خطاب للأغنياء والعظماء فى الأمم

(٢) « ولا تزر وازرة وزر أخرى »

وهذا خطاب للحكام والزعماء فيأخذون كل مذنب بذنبه

(٣) « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » . ثم فى آية بعدها . « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده »

خطاب لكل فرد من أفراد الأمة . وتنبيه حكام الشرع لحمل الناس على إيفاء الحقوق

(٤) « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلا »

خطاب لكل فرد من أفراد الأمة فلا يتلوّثوا بهذه الفاحشة ، ويصح أن نعد هذه الآية من آيات « التربية العائلية » لأن الزنا يهدم بناءها

(٥) « ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا »

خطاب لكل فرد من الأمة بأن يكونوا ودعاء متواضعين : فيتحابوا فيكونوا أقوياء وإلا تخاذلوا وضعفوا ، وتصلح هذه الآية مثالا «للتربية النفسية» لأن التواضع وعدم الغرور أساس تلك التربية

(٦) « ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً »

خطاب لكل فرد أو للحكام فى حفظ الدماء ، والحكم بالحق وترك الشَطط والاسراف

(٧) « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولاً »

خطاب لكل فرد أو للحكام مع الدول الأخرى ، فيكون من قبيل التربية السياسية . وتصلح هذه الآية أن تدمج فى آيات التربية النفسية »

(٨) « وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم »

خطاب عام وتنبيه للحكام

هذه الآيات كلها مما جاء فى أول سورة الإسراء ، ولم تستغرق ستّ الصفحات، وهى كما يرى القارىء اللبيب جماعُ الأصول العمرانية ، وكِفافُ القواعد الاجتماعية، ويتخللها آيات فى مقاصد أخرى كآية « وجعلنا الليل

والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرةً لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ،

وهذه الآية تصلح شاهداً للتربية الاقتصادية لأن فيها حضاً على السعى والكسب، والاحتفاظ بالوقت فنحصى أجزاءه ، ولاندع جزءاً منه يفلت منا سُدَى ، أو يضيع علينا بدَدا .

هذه نموذجات من آيات أوائل (سورة الإسراء) ، كما أن هذه الآيات نفسها نموذج من مجموع مافى القرآن الكريم من الحكم والعبر ، والمبتدأ والخبر ، فرسالة هذا شأنها ، والله مرسلها ، ومحمدٌ رسولها وواسطتها : هل يليق بنا أن نتغافل عند تلاوتها ، أو ندع العمل بمضمون آياتها ؟ ؟

وهو الذى ينزل الغيث[1]

قرآن كريم — سورة الشورى

مهما ارتقى البشر - واتسعت دائرة معارفهم ، ووقفوا على كنه الأسباب والمسببات، وزعموا أنه لم يعزب عنهم شيء من نواميس الأرض والسموات - بقى هناك شؤون وأسرار كونية فى دائرة لا يمكن أن تطول إليها يد علومهم ، أو يحوم حولها طائر اختراعهم .

فالدائرة الأولى هى دائرة الأسباب والمسببات ، وهى مما أذن الله للعقل البشرى أن يتجوّل فيه ماشاء ، وتسمى أيضا (مرتبة التركيب والصنع) . وهناك مرتبة وراءها تدعى (مرتبة الخَلْق والملك) وهى ما استأثر الله به ، وخصّ بها ذاته الصمدانية ، فلله سبحانه الخالقَ والملك ، وللعبد التركيب والصنع ، وقد أشار تعالى إلى المرتبة الأولى التى هى مرتبة الأسباب والمسببات ، والتى هى مدار التكليف بقوله تعالى (وامشُوا فى مناكبها) (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) (وقل اعملوا) كما أشار إلى المرتبة الثانية وهى مرتبة تصرف القدرة الأزلية بقوله تعالى (هل من خالق غير الله ؟) (ذلكم الله ربكم له الملك)(تبارك الذى بيده الملك)(ولم يكن له شريك فى الملك) . وأظهر الآيات فى الكشف عن هذه المرتبة آية (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام) ، وذكر الشيخ الأكبر فى

---

[1] كتبه سنة ١٩١٦ م

الفتوحات : أن الله تعالى نزّه ذاته عن أن يكون له شريك فى (مرتبة الملك) مذ قال تعالى (ولم يكن له شريك فى الملك) ولم يقل (فى الصنع والتركيب) للإشارة إلى أن البشر قد يكون منهم صنع وتركيب .

فى الناس من إذا نزلت بهم شدة ، أو أصابتهم مصيبة ـ وكانت تلك المصيبة أثراً من آثار (مرتبة الملك) والقهر الألهى بحيث لا تطول إليها يد الأسباب كانحباس المطر مثلاً — غفلوا عن الالتجاء إلى الله تعالى ودعائه بأن يكشف عنهم الضرّ ، ويرفع البلاء .

فيا علماء الفن وأساتذة الطبيعة: لاننكر أنكم حلّلتم المادة وأجزاءها ، وعرفتم طبائعها وأحوالها ، واكتشفتم الحركة وعجائبها ، والقوة وغرائبها ، واهتديتم إلى استخدام الكهرباء والبخار ، وانتفعتم بما هناك من نواميس وأسرار ، ولم يفتكم تعليل نشوء السحاب ، وتكوّن الضباب ، وثوران العواصف والأنواء ، وانسكاب الغيث من عنان السماء ، إلى غير ذلك من آثار الظواهر الجوية ، ومفاعيل القوات الطبيعية . فهل عسيتم إذا عرفتم كل هذا ، ووقفتم على علله وأسبابه : أن توجدوا شيئا منه من العَدَم والهُلك ، وتتعدّوا دائرة التركيب إلى دائرة الخلق والمُلك ؟ ؟

نحن لا ننكر فضل العلوم العصرية ، ولا فائدةَ الفنون الطبيعية والكيماوية ، ولا تأثيرها فى تقدم البشر . وارتقاء نوع الإنسان ، ولكننا ننكر أشدّ الانكار : أن يُحجب البشر بهذه العلوم والفنون عن المؤثر الحقيقى ، : وهو الله تعالى ، فيقفوا مكابرين دون الرجوع إليه ، والاتكال حين نزول الشدائد عليه .

اهتدى البشر إلى معرفة العناصر التى يتركب منها الماء ، وكيف يتحوّل

الماء إلى بخار ، وكيف يعلو هذا البخار فى طبقات الجو ، حتى إذا ضربه قرس البرد تكاثف بلورات مائية غاية فى الصغر هى السحاب ، ثم تسوق الريح ذلك السحاب إلى هنا وهناك وهنالك ، ثم تمطريه (أى الريح) وتعتصره فيسكب مطراً تحيي به الأرض بعد موتها — يعرف الإنسان كل هذا ، ولكن قل له : يستنزل لنا المطر بهذا العلم الذى علمه ، والسرّ الذى اكتشفه ! !

ذكرت الصحف منذ بضع عشرة سنة : أن العلماء اكتشفوا طريقة لإحداث سحاب سماوى ينهمر منه الماء على الأرض وذلك بإطلاق مدافع كثيرة فى الجو فتسخّن الهواء ، وتجمع البخار الذى فيه بشكل سحاب ثم يكون مطرا ، وقد زعموا أنهم انتبهوا إلى ذلك على أثر معركة حربية ، أطلقت فيها مدافع كثيرة ، فكان من تأثير إطلاقها ، وانتشار حرارة دخانها وبخارها ماذكرنا ، نقول لهم : ولكن لماذا لم يصح ذلك الحلم ؟ وهاقد انحبس المطر عنّا كل هذه الأيام (أيام الحرب الأولى) وهذه المدافع والقنابر تكاثرت ، وأبخرة دخانها تكاثفت ، فى هاتين السنتين إلى ما لا نهاية له ، فلم يحصل من وراء ذلك سحاب فيه ماء ، وإنما كل ما فيه هلاك وفناء

ليست المدافع ودخانها هى التى تثير الرياح وترسل المطر ، ولكن الله (هو الذى يُرسل الرياح بُشرًى بين يدى رحمته حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات)

والرحمة هنا المطر تسبقه الرياح الباردة تبشّر به ، حتى إذا حملت تلك الرياح السحاب المثقلة بماء المطر ، أراد الله منه أن يسير إلى أرض لاماء فيها فيسقيها ، ويخرج كلأها ، فتتم إرادة الله .

(ألم تر أن الله يُزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودقَ يخرج من خلاله، ويُنزل من السماء من جبالٍ فيها من بَرَدٍ فيُصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ؟) الله يُزجى السحاب أى يسوقه بواسطة الرياح حتى إذا تجمّع وتكاثف تقاطر الودق وهو المطر من بين أجزائه ، وهو تعالى كما يقدر على هذا يقدر أيضا على جعل ذلك السحاب — الذى يُشبه فى عظمه وتكاثفه الجبال — يُمطر بَرَداً مكان المطر ، ثم يرسل ذلك إلى الأرض التى يريد ، ويحبسه عن الأرض التى يريد .

(أو لم يروا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ؟) أو لم يكف فى الدلالة على قدرتنا أنا نسوق السحاب مثقلاً بالماء إلى أرضٍ جزر - وهى اليابسة لا نبات فيها - فنخرج به نباتاً تحيى به الأنعام والناس؟

(إله الأنـــام ورب الغـــما م لنا الفقر دونك والملك لك)

هذا ولا نريد أن نتتبع جميع ماورد فى القرآن من وصف هذه الظاهرة السماوية : ظاهرة تكون السحب وحملها الأمطار إلى البلاد ، فتحيى بها الدواب والعباد ، وإنما نريد الإشارة إلى أن هذه الظاهرة العجيبة مما استأثر الله به : وهى من مظاهر (مرتبة الخَلْق والملك) التى تقصر عن التطاول إليها يد البشر وحيلهم وأسبابهم ، وكل ما كان كذلك من أمور الدنيا ، فلا ينفع فيه إلا الدعاء والالتجاء إلى الله بالتوبة والاستغفار

هذا الموطن هو من المواطن التى قال الله فى مثلها (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة: أغير الله تدعون إن كنتم صادقين؟ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء)

وكما أن مواطن الشدة مختلفة: فمنها مايسعى الإنسان لكشفه بنفسه وسعيه، ومنها ما يعتمد فى كشفه على الله فيدعوه ويتوب إليه ، كذلك الموجودات التى يتعلّق بها الإيجاد فى هذا الكون : فإن منها ما يقدر البشر على إيجاده بالوسائل والأسباب التى مكّنهم الله منها : وهى (مرتبة العمل والصنع والتركيب) وقد مرت الإشارة إليها آنفا . ومنها ما لايقدر على إيجاده إلا الله تعالى وهى (مرتبة الملك والخلق والإبداع) وقد يقع التشابه بين المرتبتين أحيانا ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى (قل: هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل: الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار)

* * *

(أقول مستدركاً) كتبت هذا المقال سنة ١٩١٦م ثم بعد اثنتين وثلاثين سنة أى فى سنة ١٩٤٨ م ركبت لأول مرة الطيارة بين دمشق والقاهرة ذهاباً وإيابا ، فعجبت ـ يعلم الله ـ من غريب أمرها ، ودقّة تركيبها ، ومبلغ خدمتها للإنسان ، وللعمران العالمى .

وكنتُ كلما تخلّلتْ الطيارة السحابَ بنا ، جرى على لسانى قول الشاعر العربى :

(فلو رفع السماء إليه قوماً لكنا فى السماء مع السحاب)

يريد الشاعر أن هذا الرفع إلى السماء لا يكون ، لكنه كان ، ورأيناه بالعيان . وتجوّلتَ فى جنبات الطيارة ، وهى محلّقة فى عنان السماء ، وتفقدّت أقسامها ، وتأملت تكاوينها ، ووقفتُ ـ بعد الاستئذان ـ على رأس قائدها الأميركى ومساعده الذى بجانبه ، وتفرّست فى مابين

أيديهما من الأدوات الفنّية والآلات العبقرية ، ولم يكن الوقت مساعدا على أن أفهم شيئا مما هما بصدده . على ـ أننى والحق يقال ـ لو أفهمانى لما فهمت.

ثم صُرفتُ عن محاوله الفهم إلى التعجب من أمر الطائرة ، وانتقلت من التعجب منها إلى التعجب من دماغ مخترعها : ذلك الدماغ الذى بَالَغَ من الضعف والهشاشة وفرط الليونة حداً بحيث لو نخس برأس إبرةٍ لشُلّ وتعطّلت حركته بل لمات صاحبه .

هذا العضو البالغ فى ضعفه ، وعدم مقاومته هذا الحد ، هو الذى أوجد الطيارة البالغة فى قوتها وعظمتها وجبروتها هذا القدر .

وهنا ننتقل إلى الحقيقة الأبدية السرمدية، وهو الإله القادر الذى يستحق وحده أن يسمى بالموجد والمخترع — إن سمح لنا الفقهاء بأن نطلق هذا الوصف عليه سبحانه — وأن إيجاده تعالى لذلك العضو ـ أعنى الدماغ ـ الذى جمع بين أقصى الضعف وأقصى القوة والقدرة على الإيجاد والإبداع :

هو موضع العجب لعمرى . فلا الطيارة ولا مخترعها بأعجب من موجد الدماغ الذى اخترع وأبدع كل هذا الإبداع ، وإن الإنسان الذى يحاول اختراع طريقة لإنزال الغيث — إذا نجح فى محاولته — إنما يخترع طريقته ، ويبتدع وسيلته ، بدماغ خلقه الله له وابتدعه فيه وجهّزه به لا بدماغ خَلَقه هو نفسه أو جاء به من بيت أبيه وأمه ، ومهما أتى الإنسان بالعجائب من اختراعاته ، يبقى هو وعقله المخلوقان لله آيتين على وجود الله وإبداعه فى خلقه ، فتبارك الله أحسن الخالقين

(١)

القرآن

نشرت صحف الآستانة فى أواخر سنة ١٩١٧م أن ولاية خداوندكار (بورصه) احتفلت بافتتاح مدرسة دينية ،أسستها نظارة الأوقاف لتخريج حفظة للقرآن الكريم يقتدرون على ترتيله وتجويد تلاوته، وسميت تلك المدرسة (دار الحُفاظ)، وقد كان الاحتفال بافتتاحها عظيما، شهده والى الولاية وكبار المأمورين، وتليت فيه الخطب المتضمنة لبيان فائدة هذه المدرسة، وما يرجى للأمة الإسلامية بواسطتها من الخير والفائدة.

قرأنا هذا فسرنا جداً، وأثنينا على إخواننا الأتراك من أهل تلك الولاية، الذين تنبهوا إلى وجوب العناية بالقرآن، ونشطوا لخدمته، ونشره بين أبنائهم، ولا ريب أنهم يشعرون كما نشعر بأن القرآن هو العروة الوثقى التى يستمسك بها المسلمون على اختلاف لغاتهم، وتعدد جنسياتهم، وأن تعاليمه الدينية تربط بين قلوبهم، فيتّحدون ويتناصرون، كما تربط لغته العربية الفصحى بين ألسنتهم، فيتفاهمون ويتناصحون.

فما أكثر نفع القرآن للمسلمين، وما أجزل فائدته وأعظم بركته عليهم، ولإخواننا مسلمى الهند شعر يتغنون به فى نعت القرآن يكاد يحفظه كل واحد منهم وها هو بلغتهم الأوردية:

(جمالو حسنُ قرآن نور جانى هر مسلمان هى)
(قمر هى چاند أورونكا همارا چاند قرآن هى)

---

(١) كتبت سنة ١٩١٧ م « ١٣٣٥ هـ »

ومعنى ذلك فى العربية (أن القرآن نور لقلب كل مسلم ، وإذا كان للناس قمر يفرحون به وهو قمر السماء فإن قمرنا نحن هو القرآن) .

أنزل القرآن على سيدنا الرسول ليكون نوراً وهداية للمسلمين ، وأنواع الهداية القرآنية كثيرة ، ويمكن إرجاعها إلى ثلاثة أمور :

(١) الهداية التعبدّية ، وهى ذات وجهين : نتقرب إلى الله تعالى بمجرد تلاوة القرن خارجَ الصلاة ، كما نناجى الله تعالى به فى أثناء الصلاة : فتقع صلاتنا صحيحة مقبولة .

(٢) الهداية العلمية، وهى ذات وجهين أيضاً : نستنبط من القرآن مسائل العقائد والعبادات وشؤون الغيب وما شاء الله من أطوار النشأة الأخروية: كما نستنبط منه أحكام البيع والشراء والنكاح والطلاق والقصاص والإرث وما شاء الله من المعاملات المتعلقة بالحياة الدنيوية .

(٣) الهداية السياسية : وهى أيضاً ذات وجهين : يستمسك المسلمون كافة بعروة الإيمان بالقرآن ، فتقوى عصبيّتهم ، وتشتد منعتهم ، ويعزّ جانبهم ، كما يتعلمون لغته الفصحى لصحة الصلاة ، ولاستنباط الأحكام ، ولحصول التفاهم بينهم ، فيتم امتزاجهم ، ويدوم اتحادهم ، وتتوثق أخوّتهم .

تفرّق المسلمون بعد الفتح الإسلامى ، وتبوأت كل طائفة منهم قطراً من أقطار المعمور : من سور الصين إلى شاطىء الإتلانتيك ، وقد مر عليهم ألف ونيف من السنين ، وهم أمة واحدة ، يتكلمون بلغة واحدة ، لماذا ؟ لأنهم يقدّسون القرآن ، ويتعبدون بتلاوته ويمارسون النطق بعبارته : فإذا أخذت مسلما من الهند وآخرَ من مراكش ، وأنت من سوريا أو مصر وتكلمتم معاً بلغة القرآن وجدتم أنفسكم إخوة تنتسبون إلى أمة واحدة ، ذات لسان

واحد ، وتاريخٍ واحد ، ولولا القرآن لأصبحت كل طائفةٍ من طوائف المسلمين المتفرقين أمةً قائمة بنفسها ولغتهـــا ، ولمـا فهم المسلم العراقى ما يقوله المسلم المراكشى ، ولا هذا ما يقوله ذاك ، لأن كرور الأيام ، وتأثير أحداث الأدهار ، يكون قد عمل عمله ، وفرّق اللغة العربية المُضرية التى هى لغة القرآن إلى لغاتٍ عامية جديدة مستقلٍ ، بعضُـها عن بعض . فتصبح للغة مضر فروع متعددة ، نسبتها إليها نسبة البنات إلى الأم : كما هو الحال فى اللغة اللاتينية وبناتها الثلاث (الفرنساوية والإيطالية والاسبانيولية) الأصل واحد ، ثم لما تفرعت تباينت وما عاد ابن اللغة الفرنساوية مثلا يفهم كلام ابن اللغة الإيطالية ، ولا كذلك اللغة العربية القرشية فإن أبناءها اليوم يتفاهمون بها مهما تباعدت أقطارهم ، وقلّ الاختلاط بينهم ، والفضل فى ذلك ولا ريب عائد إلى القرآن ، وكثرة تلاوته ، وممـارسة العبادات به منذ الصغر .

ومحصل القول أن العناية الإلهية أسعدتنا بالقرآن فى ثلاثة أمور .

(١) الهداية التعبدية .

(٢) الهداية العلمية .

(٣) الهداية السياسية .

ولـكن انظر كيف أن المسلمين صرفوا مع تمادى الأزمان عن الاستفادة الكاملة من هذه الهدايات الثلاث ، وحوّلوها إلى ممارسات ثلاث أخرى شغلوا بها عن تلك ، أما هذه الممارسات فهى :

(١) تتّخذ من آيات القرآن تعاويذ ورقى للمرضى والمعتوهين والعقائم

من النساء ، وقد يستعمله الدجاجلة فى نيل لُبانانهم من البسطاء والمغفلين : فيوهمونهم أن آياته الكريمة تغنيهم عن عقاقير الدواء . ووصفات الأطباء

(٢) تقرأ آياته فى المآتم والتهاليل وفوق رؤوس الموتى وعلى قبورهم فأصبح القرآن بسبب ذلك حانوت كسب لطائفة من الناس ، يتكففّون بعبارته ، ويتعيشون من وراء تلاوته .

(٣) يتخذ القرآن بمثابة (مدارج للقراءة وللتطبيق) فيتعلم به الأولاد فى الكتاتيب القراءة والمهارة فى نطق الكلمات العربية ، ثم إذا كبر أولئك الأولاد وأصبحوا طلاب علم ، اتخذوا من آيات القرآن أمثولة لتطبيق قواعد العلوم التى تعلموها من أصول ولغة وبلاغة ونحو وصرف .

وهكذا أقمنا هذه الممارسات القرآنية الدنيوية الثلاث ، مقام تلك الهدايات القرآنية السماوية الثلاث .

حكى لى بعض النبهاء ، أنه كان فى حانوته يوما فسمع اثنين من المسيحيين يتحاوران بالقرب منه ، فاصغى إلى حديثهما ، ففهم أن أحدهما يطالب بدين له على ثالث ، وكان الذى يكلمه يقول له : إن مديونك يقول عن نفسه إنه معسر ، وهو مستعد لأن يوفيك بدل دينك قداديس يملكها . (جمع قدّاس وهو صلوات للنصارى) فأجاب الدائن وهل تسدّ القداديس جوعتى ، أو تغنى عائلتى عن الخبز ، ثم تفرّقا ، قال محدثى : فتعجبت يعلم الله من حديثهما . وبعد قليل من الزمن جاءنى شيخ مسلم مستور الحال وطلب شراء شىء ، فأعطيته إياه ، ومد يده إلى جيبه فلم يجد فيه ما يفى بثمنه فاعتذر ، وقال لى : هل لك أن أقرأ سورة الفاتحة عن روح المرحوم والدك بدل الثمن ؟ فقلت له : رضيت بذلك ، ثم عجبت من هذا الاتفاق . وكيف أن التقاليد تسرى من

أمة إلى أمة ، وكيف أن الأديان تتفارض ، من دون أن يشعر أربابها .

وذكر أستاذنا الشيخ محمد عبده (رحمه الله) أنه لما كان فى أوربا مرّ على بلاد المجر ، وزار دار الآثار فيها فمما وجده محفوظاً فى ذلك المتحف قميص الوزير (كوبريلى مصطفى باشا) وهو آخر قائد عثمانى حارب تلك البلاد وبعد قتله تفلص عنها ظل السلطة العثمانية سنة ١١٠٢ للهجرة . قال الشيخ : إنه رأى ذلك القميص وقد نقشت عليه الآيات القرآنية وخاتم الإمام الغزالى واستعاذة الجلجلوتية وأمثال ذلك من الطلاسم وغريب الخواتم .

والشواهد ـ على أن المسلمين فى عصورهم المتأخرة شغلوا عن القرآن واستعاضوا عن هداياته الثلاث بالممارسات الثلاث ـ كثيرة جداً ، ولا مجال للمكابرة فيها ، فما علينا ـ معشر المسلمين ـ فى نهضتنا الجديدة ، وانتباهنا العام المبارك إلا أن نرجع للعمل بالقرآن وهداياته الثلاث : فنتخذ من تلاوته عبادة تنهانا عن الفحشاء والمنكر ، ومن نصوصه علوماً مفيدة فى ترقية شؤوننا الاجتماعية والأخلاقية ، ومن لغته الفصيحة لغة عامة نتفاهم بها ، مهما اختلفت لغاتنا ، وتباعدت أقطارنا ، فإذا أسعدنا أنفسنا بذلك نكون عاملين بالقرآن ، ومتعرّضين لنفحات الرحمن .

هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا (١)

« قرآن كريم — سورة البقرة »

إذا خلع عليك الاميرُ خلعه ، أو وهبك دارا ، أو أعطاك متاعاً ، لا تكون شاكراً لإنعامه حق الشكر حتى يراك قد لبست الخلعة ، وسكنت الدار ، وانتفعت بالمتاع ، وان لم تفعل واطّرحت ما أعطاك جانباً ، كنت جاهلاً قدر تلك النعمة ، متعرّضاً لغضب ذلك الأمير المنعم .

وهكذا يقال بالنسبة إلى ما خلقه الله فى هذا الكون : فإن هذه الموجودات إنما هى نعم أنعم الله بها على البشر ، وأمرهم أن يستعملوها فى الوجوه التى خُلقت لأجله ، وينتفعوا بها فى الوصول إلى سعادتهم : فإن أهملوا الانتفاع بها ، أو استعملوها فى غير ما خلقت لأجله ، كانوا كافرين بأنعم الله ، واستحقوا مقته وغضبه .

والأغراضُ أو الحِكمُ التى لأجلها خلقت هذه الموجودات ، منها ما هو ظاهر جلىّ : كحكمة خلق الشمس ليكون النهار معاشا ، وحكمة خلق القمر لنعلم عدد السنين والحساب ، ومنها ما هو خفىّ كالحكم والأسرار الأخرى التى من أجلها خُلق الشمس والقمر ، وكحِكم خلق النجوم والكواكب مثلا ؛ فإن هذه الحِكم والأسرار الخفية لا يصح أن يخاطب بها الدين بجموع البشر ، وذلك لتباين استعدادهم ، واختلاف دَرَجات عقولهم ، وإنما هو

(١) كتبت سنة ١٩١٧ م

تعالى خلق لهم العقول والمدارك ، وجعل فيهم هداية ورغبة فى البحث والتنقيب للوصول إليها : فلهم أن يستعملوا عقولهم ، فيهتدوا ويصلوا ، ولهم أن لا يستعملوها فيخيبوا ويخسروا .

أما بيان حكمة خلق الكواكب ـ بالقدر الذى تُطيقه الحالة العقلية لمجموع البشر بقطع النظر عن طبقاتهم ودرجات عقولهم — فهى أنها زينة للسماء : تلذّ العين ، ويتمتع بحسنها البصر : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب)

وهكذا جميع الكائنات : لكل كائن منها حكمة ، قد تكون ظاهرة ، وقد تكون خفية ، والقرآن يذكر بعضها ويسكت عن بعضها الآخر ، لعدم استعداد مجموع البشر يوم نزول القرآن لفهم ذلك وتعقّله ، والانتفاع بمضمونه .

أما نوع الإنسان فالحكمة من وجوده عبادةُ الله (وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون) ومعرفةُ الله (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفونى) . وهاتان الحكمتان قد تكونان جليّتين عند قوم . خفيّتين عند آخرين .

أما الحكمة الجليّة التى لا يرتاب بها أحد ، فهى أن الله سبحانه خلق البشر فى الكرة الأرضية لتكون هذه الكرة مشرقةً بنور الدين والعلم والمعرفة ، مستأنسةً بالفضائل والعواطف والآداب ، مهتزّةً بحركات الاختراعات والاكتشافات والصناعات ، حيّةً بكل ماكان من آثار العقل البشرى ، ومحصول البحث الفكرى ، فأصبح من مقتضى الحكمة أن يفيض الله سبحانه على الإنسان من النِعم مايه بقاء نوعه وثبات أمره ، وأن يخلق

فى نفسه هداية توصله إلى الانتفاع بتلك النعم ، وأن يمهّد بين يديه طريق معرفة النواميس والسنن التى بها يتكاثر نسله ، وتتشعّب فروعه فيشمل العمران جميع سطح هذه الكرة الأرضية

ومن أجلّ النعم التى أعطيها نوع الإنسان نعمة النبات والحيوان : فقد خلقهما الله ، وسخرهما لخدمته ، ومكنه من الانتفاع بهما : غذاء وكساء ودواء وركوباً وسائر مرافق العيش ، وتكاليف الحياة : فالحكمة فى خلق هذين الكائنين — النبات والحيوان — واضحة جلية ، لاتخفى على أحد ، فلو يبس النبات وانقرض الحيوان من على وجه البسيطة لهلك الإنسان ، ولم يعد يمكنه العيش والحياة فيها أبدا .

وأظهر مثال نستشهد به على ذلك ، ما يقدّمه النبات لنا فى هذه الأيام (أيام الحرب الأولى) وقوداً للسكك الحديدية التى عدمت وقودها من الفحم الحجرى . فلولا الغابات وأشجارها لوقفت الحركة ، ولتعسّر نقل الجنود إلى ساحات الحدود ، على أن الفحم الحجرى نفسه هو مما أنعم به النبات ، وازدخره فى طبقات الأرض لينفع به الإنسان ، فإن ذلك الفحم ليس هو فى الحقيقة إلا نباتات استحجرت بتأثير الاحتراق والانضغاط . فما أجدر الإنسان بالشكر لله على أن خلق له هذين الكائنين ، وسخرهما لخدمته ، ومن الشكر عليهما العناية بتنميتهما وتكثير نسلهما ، وعدم إتلافهما وحرقهما من دون فائدة تعود على نوع الإنسان ، وكأن الحيوان والنبات يقولان للإنسان : ها نحن أولاء خضعنا لك واستسلمنا لتسخيرك لنا حسب المشيئة الإلهية ، فلم يبق عليك إلا أن تكافئنا على ذلك باستبقاء ما لنا من الأنواع والفضائل والطرائف فلا تتلفها ولا تهملها ، فتذهب ضياعا ، أو تفنى بتاتا .

إن فى عنايتك بنا ، وخدمتك لنا ، استبقاءً لأنواعنا المختلفة ، وإعانة لها على البقاء فى هذا الوجود ، ولكن بقاء أنواعنا هذه إن كنا نحبّه ونريده ، فإنما ذلك لأجلك أيها الإنسان ولكى يبقى نوعك ، ويثبت عمرانك ، وتصل إلى المستوى الذى قدّره الله لك .

إن من الذهول أو الغفلة أن يهمل الإنسان العناية بتربية الحيوان ، واتخاذ مختلف الطرق لتحسين نوعه ، وتكثير نسله ، ومثل ذلك أن يهمل العناية بالغابات والبساتين والحدائق والحقول والمروج ، إذ فى كلا الأمرين (نماء الحيوان ونماء النبات) منفعة له ، وفائدة تعود عليه بتخفيف آلام الحياة ومتاعبها .

إن دولاب الحياة الاجتماعية يدور حول ثلاثة محاور أو مرافق (١) الصناعة (٢) التجارة (٣) الزراعة . ولا ريب أن الأولين يعتمدان فى ارتقائهما بل فى وجودهما على الأمر الثالث الذى هو الزراعة ، وليست الزراعة سوى تربية النبات والحيوان وتكثير نسلهما

فالزراعة (مادة العمران) وربما كان هذا هو معنى قول علماء الاجتماع (البداوة أصل الحضارة) أى أن الحضارة ، انما تستمد بقاءها وانتعاشها من البداوة ، وما معنى البداوة إلا القيام على النبات والحيوان بالتربية والتوفير وتكثير النسل ، ثم إمداد الحضارة بمحصولها وريعهما ونمراتهما حالاً فحالا .

ومحصّل القول إن على الإنسان شكر النعم ، وعدم التفريط فيها ، وإلا كان كمن أعطى فضةً وذهبا فكنزهما ، ولم ينتفع بهما ، أو ألقى بهما فى البحر ، بل شأنه كشأن من أعطى عينين ليبصر بهما طريقه ، فأطبقهما طويلا حتى عميتا ، ثم أراد المسير فتردّى فى حفرة ، وبئس المصير .